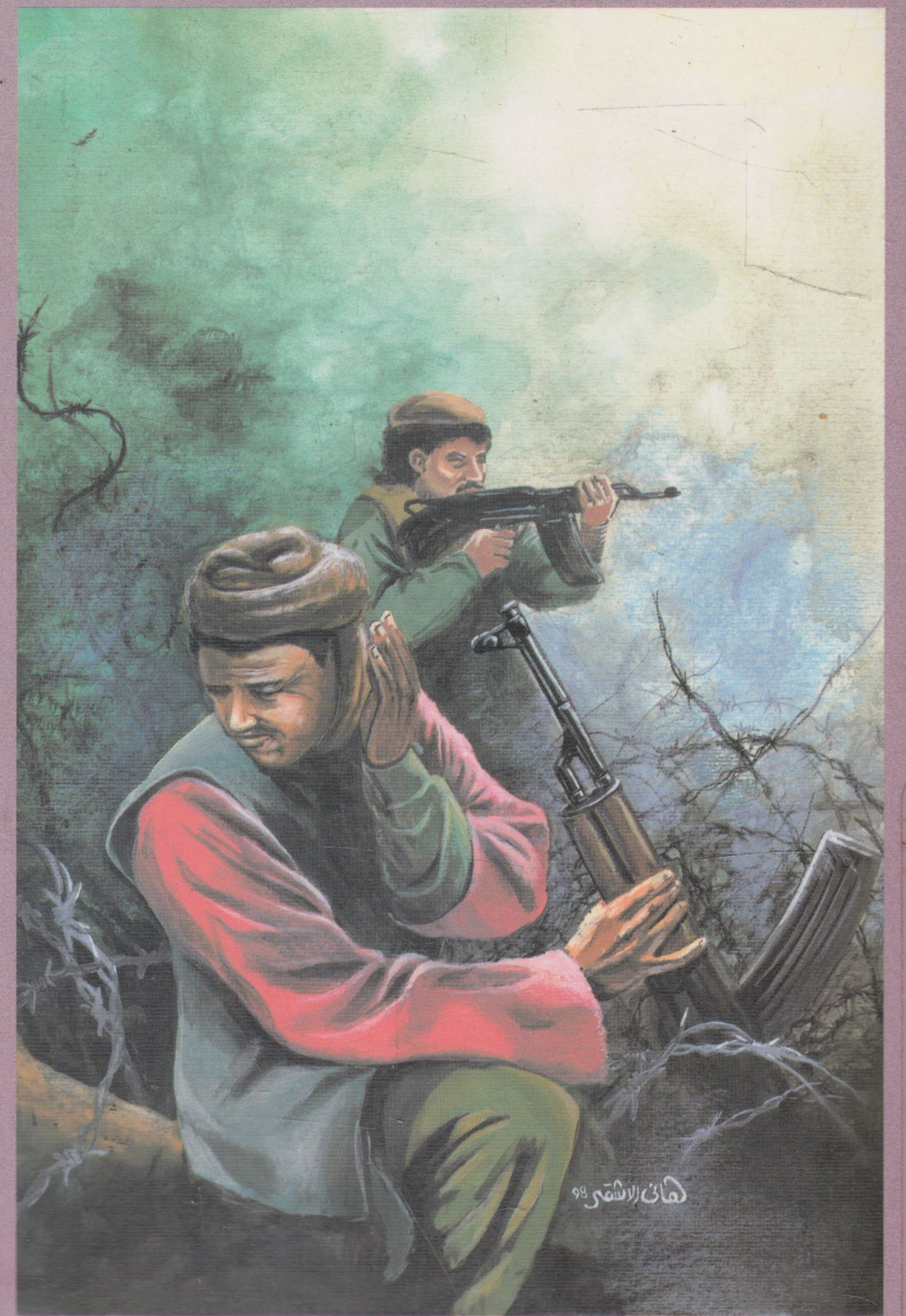
أعظم الكتب

10

فرانز فانون

المعذبون فى الأرض



تقديم

عاطف عمارة

الناشر

الناشر العربى

-١٠-

سلسلة أعظم الكتب

تقديم : عاطف عمارة

الناشر
الناشر العربى

-١٠-

الطبعة الأولى ١٩٩٨

الناشر العربى

رقم الإيـــداع : ٩٨/٧٥٨٠

الترقيم الدولى : 977-276-377-x

سلسلة أعظم الكتب

-١٠-

المعذبون فى الأرض

فرانز فانون

تقديم : عاطف عمارة

رسوم الغلاف : هاني عبد الهادي

الناشر

الناشر العربي

الثائـر

الثائر: اسمى مُذَلٌّ ، لقبى مهان. السن من عصر الحجر، حالتى ثائر.

الأم : جنسىهو الجنس الإنسانى، ديانتى الأخوة.

الثائر: جنسى هو الجنس المعذب، وديانتى.. ولكن ما أنت من يهيئها بخلو يده من السلاح، إنما أهيئها أنا بثورتى، بقبضتىَّ المشدودتين ورأسى الأشعث .

"بهدوء كبير" مازلت أذكر يوما من أيامَ تشرين الثانى، كان عمره أقل من ستة أشهر، ودخّل المولى الغرفة المسودة بالشحار دخول قمر أحمر، وحبس أعضاءه المعروقة الصغيرة، إنه مولى طيب جدًّا، وطاف بيديه الضخمتين على وجهه المحفر يداعبه، كانت عيناه الزرقاوان تضحكان، وقال وهو ينظر إلىّ: ستكون حجرة جيدة. وقال أشياء أخرى لطيفة، هذا السيد، قال إن عليه أن يتدبر الأمر، وأن عشرين عامًا ليست قصيرة من أجل خلق مسيحى طيب، عبد طيب تابع مخلص، خادم مطيع، حاد النظرة، قوى الذراع، وتصور هذا الرجل مهد ابنى مهد الخادم، وزحفنا والخناجر فى قبضة اليد.

الأم : ستموت ، واحسرتاه!

الثائر: قتلته، قتلته بيدى قتلاً خصبًا متدفق الخيرات، كان الوقت ليلاً، زحفنا بين شجرات قصب السكر، وكانت الخناجر تضحك للنجوم، لكننا كنا لانبالى بالنجوم، وشجرات قصب السكر تخدد وجوهنا بجداول من دموع خضر.

الأم : لقد حلمت بابن يغمض عينى أمه.

الثائر: آثرت أن أفتح عينى على شمس أخرى.

الأم : واحسرتا عليك يا بنى! ستموت شر ميتة!

الثائر: أماه ، بل خير ميتة.

الأم : لأنك كرهت فأسرفت.

الثائر: بل لأنني أحببت فأسرفت.

الأم : ارحمني، أغلالك تخنقني، جروحك تدميني.

الثائر: العالم لايرحمني، ليس فى العالم إنسان بائس يعدم، ولا إنسان شقى يعذب، إلا وأُقتَلُ فيه وأُذَلُّ.

الأم : خلّصه يا ربّ!

الثائر: لن تخلصني ياقلبُ من ذكرياتي.

كان ذلك ذات مساء من شهر تشرين الثاني، وفجأة ومضت فى الصمت صيحات، كنا قد وثبنا، نحن العبيد، نحن الأوغاد، نحن البهائم الصابرة، وركضنا مثل المجانين، ودوت طلقات الرصاص، وأخذنا نضرب، العرق والدم يرطباننا، وازدادت الصرخات، وعلت صيحة من جهة الشرق، إنها المنازل الفخمة تحترق، وتدفق اللهب هنيًا عذبا على خدودنا، وجاء دور الهجوم على منزل المولى، حطمنا الأبواب، انفتحت غرفة المولى كبيرة وواسعة، الضوء يسطع منها متلألئًا ، والمولى فى الغرفة، إنه هادئ جدًا، وتوقف رجالنا، إنه المولى، ودخلت أنا، قال لى بهدوء كبير: أهذا أنت؟

قلت: نعم، أنا، أنا العبد الطيّع، العبد الأمين، العبد العبد. وفجأة أصبحت عيناه خنفستين مروعتين فى أيام المطر، وضربت فانبجس الدم، هذا هو التعميد الوحيد الذى أذكره اليوم.

إيميه سيزار

"الأسلحة المعجزة" و "سكت الطلاب"

(جاليمار)

مقدمـــــــة

مؤلـف هـذا الكتـاب هـو "فرانـز فـانون" أحـد أعـلام الفكـر السياسـى المعـاصر، وهـو أيضـا المنـاضل الـذى شـارك فـى معركـة التخرير والتحرر ضـد الاستعمار فـى الجزائـر، وقـد درس "فـانون" الطـب فـى فرنسـا، ومـارس هـذه المهنـة فـى الجزائـر لكنـه تركهـا وتفـرغ للعمـل السياسـى والنضـال ضـد الاسـتعمار إيمانًـا منـه بـأن الفكـر وحـده لايكفـى للثورة والتحـرر، وأن علينـا جميعـا أن نخـوض غمـار معركـة التحـرر ضـد الاسـتعمار وأن نحمـل السـلاح فـى مواجهـة القـوى الاسـتعمارية، وإلى جـانب السـلاح فـى جبهـة المعركـة وفـى خطـوط المواجهـة يكـون الفكر والفن والأناشيد الحماسية.

كـان هـذا هـو الموقـف الـذى دفـع فـانون إلى الانخـراط فـى معـارك التحريـر والتحـرر ضـد الاستعمار، فهـو يمقـت المثقـف الـذى يكتفـى بـدوره الفنـى أو الفكـرى ويسـتبدل بهـذا الـدور مـايجب عليـه أن يقـوم بـه من الكفاح المسلح ضد الاستعمار ومن أجل هذا المبدأ ترك فانون مهنـة الطـب وتفـرغ للكفـاح السياسـى، وقـد فتحـت لـه الثورة الجزائرية أحضانها فانخرط فى سلك الثوار وأصبح ممثلاً لهذه الثورة فى المؤتمرات الدولية.

وبـالرغم مـن ذلـك لم ينقطـع "فـانون" عـن الكتابة والتأليف فأخرج عدة كتب مهمة لعل أهمهـا هـو الكتـاب الـذى نقدمـه اليـوم للقـارئ، وهـو كتـاب خصصـه "فـانون" لفضـح الاسـتعمار الأوروبـى، ولتـأييد كفـاح الشـعوب المناضلـة مـن أجـل اسـتقلالها فـى كافـة بقـاع العـالم إيمانـا منـه بـأن عصـر الإسـتعمار مـازال مسـتمرًا وأن الاسـتعمار قـد تغير وجهـه العسـكرى، واسـتبدل بالسـلاح وسـائل أخـرى منهـا الغـزو الثقـافى والتبعيـة الاقتصاديـة والسياسـة، وعلـى ذلـك ففـى العـالم الكثـير مـن الشـعوب التـى مـازالت تنـاضل ضد الاستعمار العسـكرى التقليـدى، وهنـاك أيضـا الشـعوب المستقلة اسـتقلالا مزيفـا ظاهريـا، لأنهـا فـى الواقع لم تزل مستعمرة اقتصاديا وثقافيا.

ونظـرًا لأهميـة هـذا الكتـاب فقـد قـدم لـه الفيلسـوف الفرنسـى المعاصر "جان بول سارتر" بمقدمة قال فى بدايتها:

"إنـه منـذ زمـن غـير بعيـد جـدًا كـان عـدد سـكان الأرض مليـارين، منهـم خمسـمائة مليـون

من البشر، ومليار وخمسمائة مليون من السكان الأصليين، فالأولون يملكون "الكلمة" والآخرون يستعيرونها، وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدور الوسطاء ملوك صغار مشترون، وإقطاعيون، وبرجوازية زائفة ملفقة تلفيقا، وكانت الحقيقة فى المستعمرات تبدو عارية، وكانت عواصم البلاد المستعمرة تؤثرها مكسوة، وكان على السكان الأصليين فى البلاد المستعمرة أن يحبوا هذه العواصم، كما يحبون أمهاتهم إن صح التعبير.

وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الأصليين، أخذت تصطفى فتيانا مراهقين، وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادئ الثقافة الأوروبية، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان، ثم تردهم إلى ديارهم بعد إقامة قصيرة فى العاصمة وقد زيفوا".

هذا هو الوجه الجديد للاستعمار غير التقليدى.

ولكن هذا الوجه سرعان ماانكشف أمره بعد أن أخذت الصفوة فى البلاد المستعمرة تستقل عن الصفوة فى بلاد المستعمر، لقد اكتشفت الصفوة المزيفة أن أوروبا التى تتحدث كل لحظة عن الإنسان وحقوق الإنسان، هى نفسها التى تقتل الإنسان وحقوقه فى كل مكان وزمان.

هكذا بدأ المثقف الذى انبهر أول الأمر بالثقافة الأوروبية يعى جيدًا الوجه الحقيقى للاستعمار الجديد، وكان على هذا الوعى أن يتحرك نحو الثورة والنضال ضد الاستعمار، ولكن أوروبا مع ذلك ظلت تقول بكل غرور وصلف: لقد انقلبت الصفوة فى البلاد المستعمرة ضدنا، كانت بالأمس تقلدنا، لكنها اليوم تنقدنا وتتهمنا بأننا لانتمسك بأفكارنا ومبادئنا، ولكن أليس معنى ذلك أن هذه الصفوة أكثر إيمانا منا بتلك المبادئ التى علمناها لها؟

* * *

نعم النضال ضد الاستعمار لايكون بغير السلاح، لأن المستعمر كما يقول "فانون" إذا خرج من الباب يعود من النافذة مبدلاً شكله وأثوابه ومرتديا الكثير من الأقنعة، والإقناع

لايجدى مع المستعمر الذى لايرى سوى القوة كأنجح وسيلة من وسائل السيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها.

إن الاستعمار الجديد هو الذى يتحكم فى العالم اليوم، وهو يزعم أنه صاحب الحق فى هذا التحكم الاستعمارى المقنّع بحجة الريادة الحضارية، وبحجة التمثيل الحضارى لحضارة لم يسبق للبشر أن توصلوا لها من قبل عبر مدارج الرقى البشرى والتقدم الإنسانى.

وربما كانت هذه الحجة من أقوى الأسلحة التى تستخدمها أوروبا فى الاستعمار الحديث، ولكنها مع ذلك حجة متهافتة يسهل دحضها ونفيها تماما، بل إن مظاهر السلوك الأوروبى الاستعمارى نفسها هى التى تقضى على هذه الحجة وتنسفها من جذورها، وسوف نولى هذه الحجة قدرها من التفصيل والمناقشة فى فصول الكتاب.

* * *

الكفاح ضد الاستعمار بكل أشكاله إذن هو موضوع هذا الكتاب، وعلى وجه الخصوص يهدف الكتاب إلى فضح الاستعمار الجديد، الاستعمار الأوروبى غير التقليدى، كما يهدف إلى فضح الطبقات التى تساند هذا الاستعمار فى كل مكان فى العالم تحديدًا فضح الطبقة البرجوازية فى الشعوب الواقعة تحت وطأة الاستعمار، ولذلك يؤكد "فانون" أن على الشعوب المستعمرة أن تتجاوز المرحلة البرجوازية وأن تتخطاها مباشرة نحو الاشتراكية، لأن البرجوازية عميلة للاستعمار، بل تقوم بدور الوساطة بين المستعمِر والمستعمَر ليظل الوضع الاستعمارى على ماهو عليه، ولأن مكاسب البرجوازية الحقيقية مستمدة من بقاء هذا الوضع الاستعمارى.

والبرجوازية بهذا المعنى لايمكن أن تكون وطنية، ولايمكن أن تسهم فى دفع حركة التحرر الوطنى، لأن النضال الوطنى -فى النهاية- ضد مصالحها الطبقية.

وعلى ذلك فالنضال ضد البرجوازية يعتبر جزءًا من النضال ضد الاستعمار، بل خطوة حيوية على طريق النضال الوطنى والتحرر القومى، ولابد من اتباع نفس وسيلة النضال سواء مع الاستعمار أو مع البرجوازية التى تتخفى تحت أقنعة الوطنية الزائفة، وهنا يؤكد

"فانون" على أن العنف هو الطريق الوحيد للنضال وتحقيق التحرر والاستقلال الوطنى.

ويعترف "سارتر" فى المقدمة التى كتبها لهذا الكتاب بأن "الغرب قد أفلس"، نعم أفلس الغرب حضاريا، وانقلبت المفاهيم الكبرى التى قامت عليها الحضارة الغربية على ذاتها ، من الداخل، انقلبت إلى النقيض تماما، وبانقلاب مفاهيم المنظومة الفكرية الغربية على ذاتها من الداخل، بدأ انهيار الغرب وتدهوره منذ الحرب العالمية الثانية .

والغرب يصارع الآن من أجل البقاء على القمة، يصارع من أجل التمسك بقيادة العالم، وهو لايملك القوة الحضارية، بل لايملك سوى القوى الاستعمارية وأساليب الإخضاع والسيطرة والتبعية السياسية والاقتصادية.

إن حقيقة إفلاس الغرب ليست حقيقة معروفة فحسب على مستوى الصفوة فى أفريقيا والعالم الثالث، بل إنها أصبحت حقيقة معروفة أيضا لدى الصفوة الثورية المناوئة للحضارة الرأسمالية فى المجتمع الغربى ذاته، ولهذا فإننا نسمع منذ الحرب العالمية الأولى تلك الأصوات المناوئة المرتفعة التى تنادى بضرورة نقد الحضارة الرأسمالية والمجتمع الرأسمالى، وإعادة بناء الإنسان الغربى والمجتمع الغربى من جديد على أسس إنسانية تصلح ما أفسدته الحضارة الرأسمالية من تشويه فى المجتمع والإنسان.

ومعنى ذلك أن الثورة على الحضارة الرأسمالية، وأن النضال ضد الاستعمار، لن يأتيا فحسب من خارج المجتمع الرأسمالى الغربى، بل إن فى هذا المجتمع نفسه قوى مناوئة له، وحليفة للشعوب المستعمرة، النضال ضد الاستعمار الجديد لايزال مستمرًا، وأيضا لايزال الغرب يصارع من أجل الاحتفاظ بقوتة الاستعمارية وسيطرته على العالم.

* * *

لقد توفى "فانون" عام ١٩٦١ فى إحدى مستشفيات سويسرا بعد صراع مرير مع المرض الخبيث، لكنه لم يستسلم للمرض، وظل طوال فترة إقامته فى المستشفى عاكفا على تدوين آخر أعماله، وهى هذا الكتاب الذى يعتبر إسهاما من أهم إسهامات "فانون" فى النضال ضد الاستعمار وفى مساندة حركات التحرر العالمية، وخاصة ثورة الجزائر التى

يعتبرها فانون من أبرز نماذج النضال والكفاح ضد الاستعمار.

إن الأهمية التى أحرزها كتاب "فانون" تأتى من موضوع الكتاب من جهة، ومن أن صاحبه أحد مناضلى العالم الثالث، بالرغم من أنه يحمل الجنسية الفرنسية، وبالرغم من أنه تشبع بالثقافة الأوروبية، ولكنه لم يتحول إلى بوق دعائى من الأبواق الثقافية التى يصنعها الغرب.

وعندما كتب "فانون" كتاب "معذبو الأرض" لم يقصد به التوجه إلى الضمير الغربى، لأنه يؤمن بكل تأكيد أن الإقناع لايفيد مع المستعمر، وأن وسيلة الكفاح الوحيدة المجدية مع الاستعمار هى العنف، ولذلك يتوجه فانون بكتابه إلى كل الشعوب المستعمَرة، وخاصة شعوب أفريقيا والعالم الثالث، وهو إذ يتوجه إلى تلك الشعوب يدعوها إلى الاتحاد ضد الاستعمار الجديد.

ولهذا يعلق "سارتر" على هذه الدعوة بقوله: "إن العالم الثالث يكتشف نفسه، ويخاطب نفسه بهذا الصوت"، هذا الصوت الذى يعلم الناس أنهم لايحيون فى ظل عالم متجانس كما كانوا يظنون، لأننا لانزال نجد فى هذا العالم شعوبا مستعمرة وأخرى نالت استقلالاً كاذبًا، ومازلنا نجد بعض الشعوب مازالت تقاتل من أجل الحصول على سيادتها، والشعوب التى حققت حريتها ولكنها تحيا مهددة بالعدوان الاستعمارى دائما، وهكذا تعمل أوروبا دائما على خلق التعارضات والانقسامات والتناقضات والاضطرابات وتقوى النزعات العرقية وتصنع الطبقات وتعمق الانقسام الطبقى داخل المجتمعات بشتى الحيل والأساليب .

وهكذا وضعت أوروبا العالم المستعمر كله فى مواجهة نضالية ضد ذاته -أولاً- قبل أن يدخل معها فى أى مواجهة نضالية، ويدرك فانون ذلك جيدًا فيؤكد قائلاً: إنه علينا أن نناضل ضد أنفسنا أولاً، وأن نتخلص من تناقضاتنا ومن الانقسامات التى عمقتها أوروبا فى مجتمعنا، لأن هذا النضال لاينفصل عن النضال ضد الاستعمار أو النضال من أجل التحرر الوطنى.

وقد تضحك أوروبا ساخرة من "فانون" وأمثاله، ومن كل رموز التحرر الوطنى

والنضال ضد الاستعمار، قد تضحك وهى تقول: إن العالم الثالث لاوجود له لأنه -فى الواقع- ليس سوى البرجوازيات العملية التى وضعها الغرب فى السلطة، ولذلك فلا أمل للعالم الثالث فى الثورة أو التحرر من الاستعمار الجديد.

غير أن أوروبا لاتدرك بذلك أنها قد سدت جميع الطرق أمام العالم المستعمر بحيث لم يعد أمامه سوى أن يلجأ إلى القوة، سواء فى نضاله الذاتى أو نضاله ضد الاستعمار الجديد.

هكذا العنفُ يولد العنفَ المضاد، وهكذا يؤدى منطق الاستعمار إلى القضاء على الاستعمار، لأن الاستعمار نفسه لايمكنه التمادى فى العنف إلى حد إبادة النوع، ولذلك يجب أن يتوقف عند درجة معينة من العنف لايتجاوزها، وهى نفس الدرجة التى تولد العنف المضاد، أضف إلى ذلك أن المبالغة فى العنف تقضى على الشخصية وتحطم قواها، الأمر الذى ينعكس على الإنتاج فى البلاد المستعمرة، وهنا تصبح النفقات على المستعبد أكثر مما يحققه من الدخل، وهنا يجد الاستعمار نفسه وقد توقف فى منتصف الطريق، لأنه لن يستطيع أن يجنى سوى ثمار العنف.

* * *

معذبو الأرض، إذن صرخة ضد الاستعمار الجديد، صرخة تحمل فى ثناياها دعوة للاتحاد لكافة الشعوب المناضلة من أجل التحرر الوطنى، وهو صرخة تفضح الوجه الاستعمارى للغرب، كما تفضح البرجوازيات العملية للغرب فى الشعوب المستعمرة، وهى صرخة تعلمنا كيف يجب أن نكتشف أنفسنا وكيف يجب أن نتعرف على طريقنا النضالى الذى يقودنا إلى التحرر وإلى بناء عالم جديد متحرر من الاستعمار الجديد، الاستعمار الغربى الذى أفلس، والذى يجب أن يقودنا إفلاسه إلى تسلم مقاليد ريادة الحضارة الجديدة، الحضارة الإنسانية المتحررة التى يبزغ فجرها من الشعوب التى عانت وطأة الاضطهاد والاستعمار.

عاطف عمارة

العنف

لامفر من القول إن محو الاستعمار ضرورة لكل تحرر وطنى، أو لكل نهضة قومية، أو لكل انبعاث شعبى، أو لكل اتحاد بين الشعوب، كما أنه لامفر من القول -أيضا- إن محو الاستعمار دائما مايكون حدثا عنيفا، لأنه يهدف إلى إحلال نوع إنسانى محل نوع إنسانى آخر، بشكل كلى مطلق، وبدون مراحل انتقالية، وليس من شك فى أن أبرز علامات النجاح الدالة على محو الاستعمار هى: تبدل المجتمع وصورته تبدلاً جذريًا، كما أنه لاشك فى أن هذا التبدل يدل على إرادة جامحة مستقرة فى الوجدان الشعبى لدى الشعوب المستعمرة.

فإذا كان هذا التبدل يشير إلى قوة إرادة الشعب الراغب فى التحرر والتقدم، فإنه أيضا يشير إلى خوف المستعمر من مستقبله المرعب ومصيره النهائى الذى يتوقعه ويعمل على دفعه بالمبالغة فى استخدام القوة أو الحيلة أو اتباع أسلوب تعميق الخلافات والانقسامات الاجتماعية فى المجتمع المستعمر.

* * *

إن محو الاستعمار لايهدف إلى شئ سوى تغيير نظام العالم، وهو لذلك يسعى إلى قلب النظم قلبا مطلقًا، وهو باعتبار أهدافه هذه يعد برنامجا يستمد شكله كما يستمد مضمونه من إدراكه للحركة الصانعة للتاريخ، فهذا البرنامج لاتحققه الصدفة أو التفاهم الودى، ولن تحققه عملية سحرية أو زلزال طبيعى، بل إن هذا البرنامج الذى يهدف إلى تغيير نظام العالم لايتحقق إلا عبر الصراع بين قوتين متعارضتين، لكل منهما صفته الخاصة التى يستمدها من الطرف الاستعمارى نفسه.

لقد بدأ هذا الصراع بين قوتين بالتجابه عن طريق العنف، ثم حدث التساكن بين القوتين زمنا، ولهذا أصبحت كل قوة تعرف الأخرى، بل إن المستعمر هو الذى صنع المستعمَر لأنه الأقوى، ومازال يصنعه، وعلى هذا يصبح محو الاستعمار مسألة وجود، لأن هذا المحو يؤدى إلى تغيير الوجود، ويجعل المستعمَر يدخل التاريخ من جديد لأنه سوف يستعيد فعاليته بالتحرر من الاستعمار، وهو إذ يستعيد فعاليته يستعيد أيضا هويته ويستقل بها، ولايعنى استعادة الفاعلية والهوية سوى استعادة الإنسانية، لأن الإنسان

المستعمَر يظل تحت وطأة الاستعمار فاقدًا بالاستسلام لكل فاعلية أو هوية أو إنسانية نتيجة للقهر الاستعمارى.

على أن الأخذ بهذا البرنامج التحررى الذى يهدف إلى محو الاستعمار يحتاج إلى أن يكون المجتمع الراغب فى التحرر قد تهيأ لاستخدام العنف منذ زمن طويل، وأن يكون قد أدرك تماما أن هذا العالم الاستعمارى الطبع لايمكن تبديله إلا بالعنف المطلق.

إن العالم الذى يسوده النظام الاستعمارى هو عالم مقسم بين السكان الأصليين وبين الأوروبيين، وبالطبع فإن حقوق هؤلاء فى هذا العالم ليست متساوية مع حقوق أولئك، بل إن أوروبا تستغل السكان الأصليين وتستغل قوة عملهم وثرواتهم لكى تثرى وتتقدم وتظل قابضة على السلطة والقوة الاستعمارية، فما حدث منذ زمن هو أن أوروبا قد استغلت ذهب القارات الأخرى وثرواتها المعدنية فى بناء مصانعها ومجتمعها وقصورها، وفى إغناء الحياة الأوروبية وصناعة إنسانية المواطن الغربى، ومازالت أوروبا تستغل البترول، وتستغل الثروات الهائلة التى تكدسها البرجوازيات العميلة فى البنوك الغربية، وكل هذا الاستغلال لصالح تقدم أوروبا ورفاهيتها على حساب الشعوب المستعمرة اقتصاديا، إن أوروبا تحقق تقدمها ورفاهيتها بالاستعمار الذى يعمل على إبقاء الشعوب المستعمرة متخلفة.

وهكذا يظل العالم الاستعمارى الطابع منقسما إلى عالمين: الأول للسكان الأصليين، والثانى لأوروبا، الأول يسوده التمييز العنصرى -كما فى أفريقيا- والقهر العنيف، والتوجيه الأخلاقى الاستعمارى الذى يحث على الخضوع والطاعة..إلخ،أما القسم الثانى فهو القسم الذى ينعم بالثروات المسلوبة، وهو القسم الذى يبنى مجتمعه وإنسانه على حساب غيره.

على أن العلاقة بين المستعمَر والمستعمِر ليست بمجرد علاقة استغلال أو استنزاف للثروة، إنما هى علاقة تتجاوز الاستغلال والقهر إلى إيقاف نمو وتطور الشعوب المستعمَرة، ولايتم ذلك إلا بقتل إنسانية المواطن المستعبد فى الشعوب المستعمرة، وتلك هى الخطورة الحقيقية للاستعمار.

لو لم يقتل المستعمِر إنسانية المستعمَر لما استطاع أن يهنأ بكل ماسلبه من الثروات، لأنه سيظل يتوقع صحوة المستعمَر وانتقامه، بل يتوقع أن يتحرر المستعمَر ويحتل مكانه بعد أن يقتله لأنه يحسده على كل شئ ينعم به، والمقارنة بين نمط حياة المستعمر والمستعمر تكشف عن هذه العلاقة التى يسودها الحسد، فالمدينة التى يسكنها المستعمِر مدينة نظيفة على أحدث طراز، مضيئة، متقدمة، مكتظة بكل أنواع المتع، الملابس والأحذية والمأكولات والنوادى والمواصلات وسائر الخدمات، إنها المدينة الحرة المشرقة.

أما المدينة التى يسكنها المستعمَر فهى المدينة الخربة، المظلمة، المتخلفة، المكتظة بكل أنواع البؤس والفقر والشقاء، حيث الزنوج أو العرب حفاة عراة، حيث القمامة والأمراض، حيث الجوع إلى كل شئ بدءًا من الخبز إلى الملابس إلى سائر الخدمات، إنها المدينة المقهورة الخاضعة المستعبدة، المدينة التى يحلم أهلها بأن يحلوا محل الرجل الغربى فى كل شئ، وأن يعيشوا حياة مثل حياته، وأن ينعموا بكل ماينعم به، فهم ينظرون إلى المستعمِر نظرة الحقد والحسد والشعور بالدونية والرغبة فى احتلال مكانه.

ولو لم يقتل المستعمِر كل المشاعر الإنسانية فى المستعمَر لما آمن على نفسه وحياته، ولتبدل الوضع الاستعمارى إلى النقيض من خلال الثورة، فالمنطق الاستعمارى لايرى للثورة مبررًا أو تفسيرًا سوى حقد الفقراء على الأغنياء، وهذا المنطق لايعترف -طبعا- بالجرائم التى ارتكبها الأغنياء فى حق الفقراء، أو الجرائم التى ارتكبها الاستعمار فى حق الشعوب المستعمرة، بل هو المنطق الأعمى الذى يرى أن الشعوب المستعمَرة هى الشعوب البربرية المتوحشة المتخلفة التى لايمكنها التقدم إلا تحت وصاية الاستعمار الغربى، وهكذا يبرر الاستعمار نفسه بالفلسفة الاستعمارية التى تسمح للغرب باستغلال ثروات الشعوب المستعمَرة بحجة أن الشعوب البربرية تملك الثروة لكنها لاتعرف كيف تستفيد منها أو كيف توظفها لتحقيق التقدم الحضارى للبشرية، ولذلك يجب أن تخضع تلك الشعوب البربرية للوصاية الاستعمارية للغرب، ويجب أن يتبع الغرب معها أسلوب العنف الاستعمارى لأن البربرية لاتروض -أولاً- إلا بالعنف، فإذا تم ترويضها بالقدر الكافى أمكن تلقينها الأفكار الغربية لتصبح هامشا للمركز الحضارى -الاستعمارى- الغربى.

* * *

الانتماء إلى نوع معين، أو إلى لون معين، أو الانتماء العرقى، إذن هو الشعور الحاسم للمستعمر وهو الشعور الذى يحكم العلاقات الاستعمارية، فالمستعمر يشعر أنه أفضل وأرقى فى البشرية والإنسانية من الشعوب البربرية المتخلفة لمجرد الانتماء إلى لون هو اللون الأبيض، والشعور بالأفضلية يتولد عنه الشعور بالسيادة ويترتب عليه الرغبة فى فرض السيادة والوصاية فى كل شيء، والوصاية لاتعنى فقط مصادرة الثروة، وإنما كذلك مصادرة كافة الحقوق بما فى ذلك حق إدارة وتوظيف الملكات الذاتية فى اتخاذ القرار أو صناعة المصير، وتصل المصادرة إلى الحرية والإرادة والفكر والعمل.

الصراع فى العالم الاستعمارى المقسَّم إذن هو الصراع على تملك كل شيء، ولهذا يبدو التفاوت فى نمط الحياة وطراز المعيشة والوقائع الاقتصادية والاجتماعية تفاوتا رهيبا فى هذا العالم، ويشير هذا التفاوت نفسه إلى أن الاستعمار قد حطم وخرب كافة صور الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومختلف أشكال المظهر والملبس، ولذا فإن الصراع بين المستعمر والمستعمر ليس صراعا عقليا، والمعركة بينهما ليست معركة بين وجهتى نظر، والخطاب المعبر عن هذا الصراع ليس خطابا فى المساواة بين البشر.

فما يظهر عاريا فى المستعمرات على أنه الجوع والفقر، المرض والقهر، التسلط والاستبداد، الطغيان والانسحاق، ليس مجرد دلالة على علاقة الاستغلال القائمة بين المستعمِر والمستعمَر، وإنما هى تخفى وراء تلك المظاهر قوى شيطانية مخربة ومدمرة لكل شيء، ولايشبع نهمها للتدمير سوى تدميرها للإنسانية ذاتها، إذ إن الأوروبى ينظر إلى الشعوب المستعمرة نظرته للحيوانات، وهو عندما يتحدث عن تلك الشعوب فإنه يستخدم من الألفاظ مايعبر عن تلك الرؤية، فالمستعمِر يعتقد على الدوام أنه يتعامل مع قطيع، أو مع كتل لا رأس لها ولاذنب، وهو إذا تعامل مع الصفوة البرجوازية أو المثقفة فى هذا القطيع لايدع لنفسه أو لها الفرصة لكى يتعرف بشكل تفصيلى ودقيق على أهل البلاد المستعمرة، لأن العلاقة بين المستعمر وبين البرجوازية هى العلاقة بين التاجر والسمسار الذى يتوسط لإتمام الصفقة، أما البضاعة ذاتها وهى الشعوب المستعمَرة فلا وجود لها ولاحول ولاقوة، إنها مجرد بضاعة!

والسمسار نفسه لايقوم بدور الوساطة إلا عندما تدرك القوى الاستعمارية أنها قد فقدت سيطرتها على زمام الأمور، وهنا يقوم الاستعمار بالمناورة والالتفاف للدخول من الباب الثقافى، وتقوم البرجوازية بدورها فى الوساطة من خلال نفس الباب، أى من خلال الثقافة.

* * *

الاستعمار إذن يفرض على العالم هذا الوضع الثنائى الانقسامى، أما التحرر ومحور الاستعمار فهو السبيل الوحيد لتوحيد العالم.

على أن هذا التوحيد لايمكن أن يتحقق من خلال الليبرالية البرجوازية، تلك الليبرالية التى تعتقد أنه من الممكن أن يعيش المستعمَر والمستعمِر فى سلام، وأنه يمكن أن تسود المساواة العالم كله، فسائر القيم الليبرالية صنيعة الاستعمار، والاستعمار نفسه لايلتزم بهذه القيم العليا التى هى الركائز الأساسية التى تكونت منها ثقافته، الحرية والعدل والمساواة والإخاء والتقدم الإنسانى، كل هذه القيم هى قيم ثقافة المستعمِر الغربى، والرجل الغربى نفسه هو أول من يطأ هذه القيم تحت قدميه وهو فى طريقه إلى المستعمرات، ففى المستعمرات لاعدل ولامساواة ولاحرية ولا إنسانية.

ومع ذلك تظل البرجوازية العملية للاستعمار تغرس القيم الثقافية التى من شأنها أن تعرقل تسارُع الاحتدام الحتمى بين الشعب المضطهد والسلطة الاستبدادية، لأن مصلحة البرجوازية العملية هى نفسها المصالح ذاتها التى يتوخاها الاستعمار.

وحتى الشعوب التى نالت استقلالها الشكلى، فإننا نجد البرجوازية فيها تحولت إلى عملية للسلطة القائمة، وهذه البرجوازية تنادى بأن تكون المعاملات والأسواق التجارية والفرص فى أيدى أبناء الأمة وحدهم، ومعنى ذلك -عندهم- أن ينحصر نهب الأمة فى أبناء الأمة، وبالأحرى فى أيدى القادرين على النهب المنظم غير المكشوف، فالسلطة ذاتها بمساندة البرجوازية ومشاركتها -طبعا- هى التى تفوز بالغنيمة الوطنية كلها، ولكن الشعب لن يلبث أن يكتشف المؤامرة، ويكتشف التواطؤ بين السلطة والبرجوازية، وهو

مهما طال به السكوت، فلابد أن وعيه الاجتماعى والسياسى سوف يقودانه إلى الثورة فى حال اكتمال هذا الوعى.

وإن انتهازية المثقف البرجوازى، عميل السلطة أو عميل الاستعمار، انتهازية مكشوفة، وأنماط السلوك والتفكير لدى هذا المثقف هى نفسها أساليب السلوك والتفكير الاستعمارى، لأن المثقف البرجوازى تربى أساسا فى أحضان الاستعمار وتشرب ثقافته وقيمه، وسوف يظل هذا المثقف على حاله حتى بعد التحرر الذى لم يبذل فيه الشعب جهدًا يؤدى إلى التحرر الجذرى، أى أن هذا المثقف سوف يتحول من العمالة للاستعمار إلى العمالة للسلطة، ويظل يؤدى نفس الدور بنفس الثقافة.

أما المثقف الوطنى، المناضل فى الصفوف الشعبية، فإنه على العكس من ذلك، يستمد ثقافته من الأصالة الشعبية، ومن أهداف الثورة الشعبية التى لاتطلب سوى التحرر، فاستقلال الأرض والخبز هو الضمانة الوحيدة للحرية والكرامة، بالمعنى الذى يفهمه الشعب، لا بالمعنى الذى تروجه الثقافة الاستعمارية.

* * *

إن الانقسام يظل قائما حتى بعد التحرر من الاستعمار، وذلك بفضل البرجوازيات العميلة، فما يتركه الاستعمار بعد رحيله العسكرى هو عالم الحواجز، العالم المنقسم، العالم الجامد، وتماثيل الجنرالات الذين احتلو البلاد، وتاريخ الأمة ذاتها يتحول إلى تاريخ تصفية للاستعمار، تاريخ تصفية للنهب والسلب الاستعمارى، ولكن يظل الصراع القائم بعد ذلك هو صراع مع النفس من أجل تجاوز الحدود التى فرضها الاستعمار فى الواقع، كما فى الفكر البرجوازى العميل للاستعمار.

إن المستعمِر يدرك أنه هو الذى صنع البلاد المستعمَرة، ولذلك فهو يعتقد أنه بصناعته لتاريخ البلاد المستعمَرة إنما يضيف إلى تاريخه هو، تاريخ تقدمه القومى، ولذلك فهو ينظر إلى البلاد المستعمَرة كما لو كانت الامتداد لممتلكاته وثرواته، يتصرف فيها كما شاء، ولكن نتيجة الاستعمار هى نشوء الروح العدوانية فى الشعوب المستعمَرة، فالإنسان فى

المستعمرات لايمكنه إلا أن يحلم عن طريق عضلاته، أى عن طريق العنف الذى هو الوسيلة الوحيدة القادرة على تحقيق الحلم الممنوع، إن إنسان المستعمرات يحلم بأنه ينطلق ويهجم ويتحرر ويثب ويتسلق ويركض ويضحك، وكلها أحلام فعل عضلية، وكل هذه الأحلام هى التجهيز الدائب المستمر الذى لايتوقف عن تجهيز النفس لبدء المواجهة الفعلية العنيفة مع المستعمر.

إن الإنسان الواقع تحت وطأة الاستعمار يحيا دائما فى عالم معاد كل مافيه يشحنه بشحنات متراكمة من ردود الفعل العدوانية المكبوتة، فالمطاردة والاضطهاد والحرمان والقهر والفقر ومايقابل ذلك من مظاهر استعراضية استعمارية للقوة، كل ذلك يراكم الميول العدوانية ويدفعها دفعا إلى الانفجار فى أى اتجاه، وطالما كانت جميع الثغرات مسدودة فإن العنف يظهر أول الأمر مع الذات، أو بين الأفراد، أو القبائل، الأمر الذى يجعل المستعمِر يظن أن الشعوب المستعمَرة مصابة بالجنون حقا لأنها تقتل بعضها البعض لأتفه الأسباب.

لكن المتابعة النفسية لظواهر العدوان فى الشعوب المستعمَرة تدل على أن المشاجرات العنيفة أو الاقتتال بين الأفراد أو القبائل، إنما هو مسلك هروبى يلجأ إليه الإنسان المستعمَر للحرب من مواجهة العدو الحقيقى، وقد يتحول العنف ضد الذات إلى وسيلة تدميره يتحرر المستعمَر بها من التوتر المكبوت تجاه المستعمِر، فالعنف الاستعمارى يتزايد، وفى مقابله تتزايد شحنات عدوانية مكبوتة لابد لها من الانفجار لأنها تسبب التوتر النفسى والعضلى، ولايجد هذا التوتر الانفعالى مخرجا له إلا المشاحنات أو الاقتتال بين القبائل.

كما أن العقائد الدينية والإيمان بالخرافات والأساطير يؤديان دورًا عظيما فى التخفيف من الشعور بوطأة الاستعمار، فالمؤمن قد يعتقد أن الاستعمار ماهو إلا أداة استخدمها الله لإنزال العقاب به، أو للتعبير عن غضبه، أو أن كل هذا البؤس والحرمان والنكبات ماهى إلا القدر الذى قدره الله، فالإيمان بالقضاء والقدر يساعد النفس على تحمل الظروف مهما كانت.

وعلى ذلك قد يتخذ المسلك الهروبى شكل ردود الفعل العدوانية تجاه الذات، أو قد يتخذ الشكل الدينى الذى يعطى المرءشعورًا بأن الهوية متصلة اتصال التاريخ، وأن كل شئ سوف ينتهى دون أن تتهدد الذات بخطر الفناء على الرغم من وجود الاستعمار، فعالم الدين والسحر هو العالم الوحيد الذى مازال قائما، والذى يظل مؤكدًا للمستعمَر أن عالمه مايزال باقيا، ولذلك يلجأ المستعمَر إلى هذا العالم ليحتمى به من المستعمِر، والاستعمار نفسه يدرك هذه الآليات السيكلوجية ويعلم كيف يوظفها تماما لمصالحه.

ولكن كما يخلق الاستعمار بالعنف عنفا مضادًا، وكما يعمل الاستعمار على كبت العنف المضاد بهدف التدمير النفسى للمستعمَر، يهرب المستعمر من هذا الكبت بشتى الطرق، ولكن لامفر فى النهاية من مواجهة العنف بالعنف المباشر، ولامفر من محو الاستعمار.

وعندما تبدأ معارك التحرير الفعلية، ينخلع الشعب تماما من كافة الخرافات التى كان يحتمى بها ويعلق عليها آماله فى التخلص من الاستعمار، ونرى الشعب -عندئذ- مستغرقا فى الكفاح إلى أقصى درجة من الواقعية، بل إن الكفاح المسلح عندئذ تغلب عليه درجة عليا من درجات التنظيم، ربما لم يكن الشعب يعهدها من قبل فى حياته.

لكن قبل بدء الكفاح التحررى الفعلى، أين يذهب كل هذا العنف المضاد المكبوت؟

إن الدراسات التى أجراها علم النفس البرجوازى على الشعوب المستعمَرة تؤكد كلها أن الإنسان المستعمَر ليس سويا، وأن الشخصية الإنسانية المستعمَرة شخصية هستيرية، كما رصدت هذه الدراسات الكثير من مظاهر التحلل فى الشخصية، والكثير من مظاهر الازدواج أو الانقسام، والكثير من مظاهر العُصَاب، وكل هذه المظاهر المرضية التى تم رصدها، رصدت من خلال المسلك الهروبى الذى يتعبه الإنسان المستعمَر، سواء كان المسلك عنفا يجد مخرجه من الخصومات الفردية، أو التقاتل بين القبائل، أو فى حفلات الرقص الجماعية الهستيرية التى تشبه كثيرًا حفلات الزار، أو فى الحفلات الجماعية المخصصة لعلاج المس الشيطانى.

هذه الحفلات على وجه الخصوص هى المخرج الأمثل لهذه الشحنات المكبوتة من

العنف المضاد، فكثيرًا مايذهب أهل القرى المستعمرة إلى حفلات الرقص وهم فى قمة التوتر الانفعالى ويعودون إلى منازلهم بعد ذلك وقد أفرغوا من نفوسهم تلك الشحنات التى تسبب لهم التوتر النفسى والعضلى، وكأن هذه الحفلات أهم مصدر من مصادر الشعور بالأمن والسكون والتخلص من التوتر والشحنات العدوانية الكافية، ففى هذه الحفلات يقوم الأفراد بطقوس رمزية تعبر عن القتل، أو التخلص من الأرواح الشريرة المسيطرة على الجسد كرمز للتخلص من الحالة القائمة، فكل الممارسات الرمزية مبنية على الخيال، وهى ممارسات يتحرر بها المستعمَر مؤقتا عن طريق الوهم والخيال.

ولكن الشحنات التى يتخلص منها هذا الإنسان المبكوت المنسحق تحت وطأة الاستعمار لاتكون آخر الشحنات، لأن الاستعمار -العدو الحقيقى- لايزال موجودًا ولايزال يمارس ضغطه ويواصل ارتكاب جرائمه، وهكذا يعود العنف الاستعمارى -من جديد- ليدفع العنف المضاد إلى التراكم والترسب فى اللاشعور.

* * *

إذن يستمر العنف والعنف المضاد فى العالم الاستعمارى، ولكن ما الوسائل التى من شأنها أن تحافظ على العنف المضاد وعلى اتجاهه الصحيح فلا ينحرف عن تحقيق هدفه ولايهدر طاقته فى المسالك الهروبية بشتى أنواعها؟

لعل أقرب الوسائل التى يتيحها لنا الواقع هى: الأحزاب السياسية، والصفوة المثقفة والنخبة التجارية، فتلك هى القوى التى تقترح على العنف أن يوجه طاقته من خلالها فى أعمال جديدة، لكن هل يمكن لهذه القوى أن توظف العنف الجماهيرى لخدمة هدف التحرر من الاستعمار؟

لكى نتمكن من العثور على الإجابة الصحيحة لهذا السؤال يجب علينا أن ننظر فى نوع هذه الأحزاب ونوع قاعدتها.

فكل ماتقوم به الأحزاب السياسية على اختلافها فى فترة الاستعمار هو النشاط الانتخابى والمناداة بحق البشر فى الخبز والكرامة، وهذه الأهداف بالطبع تدل على طبيعة

تلك الأحزاب التى لاترى ضرورة إلى استعمال العنف والقوة، لأنها تعمل فى نطاق الشرعية ولاتهدف إلى قلب النظام الجديد، فهى أحزاب إصلاحية، لاتتطالب بشئ سوى المزيد من الإصلاحات للحفاظ على مصالح قاعدتها المكونة من أصحاب الحرف والتجار الذين يستفيدون من الوضع الاستعمارى، فجملة مطالب هذه الأحزاب هو إصلاح الأحوال أو زيادة الأجور، ولذلك فإن الحوار بين هذه الأحزاب وبين القوة الاستعمارية لم ينقطع أبدًا، ويتصل الحوار بهدف التوصل إلى تسوية تحقق مصالح الجميع، مصالح الاستعمار ومصالح الأحزاب وقاعدتها، فهى تبحث فى تحسين الأحوال والتمثيل الانتخابى، وفى حرية الصحافة وحرية الاجتماع، تبحث فى الإصلاح لا التغيير الجذرى، أما الصفوة المثقفة فهى تنفق جهودها فى التشبه بالعالم الاستعمارى وتبنى أفكاره وقيمه ومعارفه، فإذا كانت القواعد الحزبية مؤلفة ممن لهم مصالحهم مع الاستعمار، وكانت الصفوة المثقفة لاتدعو إلى الثورة الجذرية بل الإصلاح على الطريقة الغربية، فأى الطبقات فى المجتمع يعول عليها فى الثورة؟

لاشك أن الطبقة الفلاحية التى أغفلتها جميع الأحزاب هى الطبقة الأكثر ثورية، وهى الطبقة التى ليس لها من المصالح ماتخشى عليه، فالفلاح لن يخسر شيئا بالثورة، بل هو يطمع فى كسب كل شئ بالثورة، ولذلك فإن الفلاح وحده هو الذى يدرك جيدًا أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية، ولذلك فإن التسويات أو الإصلاحات أو الحلول الوسط، كلها أمور مكشوفة بالنسبة له، وهى أمور تطيل عمر الاستعمار، الفلاح وحده هو الذى يدرك أن الاستعمار ليس آلة مفكرة، وليس جسدًا مزودًا بالعقل، وإنما هو عنف هائج لايخضع إلا بالعنف الأقوى، ولهذا يعمل الاستعمار دائما على إبعاد الفلاح عن الأحزاب السياسية، لأن هذه الأحزاب ذاتها هى التى سوف يلجأ إليها الاستعمار عندما تؤذن الأوضاع بالانفجار، فإذا تدخلت الأحزاب بالتوسط نادت بضرورة الهدوء وعدم العنف وبإمكان التسوية من خلال الحد الأدنى للمطالب المشروعة.

إن أهمية هذه التسوية بالنسبة للبرجوازية لاتقل عن أهميتها بالنسبة للاستعمار، لأن الجماهير إذا أطلقت العنان للعنف فإنها سوف تحطم كل شئ، الجسور والمصانع والمزارع، وكل ذلك يطعن الاقتصاد طعنة قاسية لاتتحملها البرجوازية بقدر ما لايتحملها

الاستعمار، ولهذا تعمل البرجوازية على تهدئة الأوضاع وتقوم بدور الوسيط بين الشعب والسلطة الاستعمارية، ويصل الأمر إلى حد انتقاد الأحزاب للعنف ووصفه بالإرهاب والوحشية والتبرؤ منه، وزعماء الأحزاب لايثقون -فعلا- بأن العنف هو الحل الوحيد لإنهاء الاستعمار، لأنهم ينظرون إلى قوة المستعمر باستمرار ويخشونها ويرون أنه من البديهى أن ينتصر المستعمَر نظرا لقوته وتقدمه، فماذا يفعل السيف أمام المسدس مثلا؟

ولكن أغلب التجارب التحررية التى شهدها العالم أثبتت خطأ النظرة، بل إن الاستعمار نفسه قد تغيرت نظرته إلى المستعمرات، فأصبح يراها أسواقا بعد أن كان يراها مجرد منابع للثروة، وبتغير نظرة الرأسمالية للشعوب المستعمرة أصبح حتما أن تحل "التسويات الاقتصادية" محل سياسات الحرب التى كانت تصل فى كثير من الأحيان إلى اتباع سياسة "الأرض المحرقة" التى تحقق الإبادة الكاملة عند احتدام الصراع بين المستعمِر والمستعمَر.

إن الاستعمار يعيد تصدير المواد التى نهبها إلى الشعوب المستعمرة، وهو لذلك يحرص كل الحرص على عدم إبادتها إبادة كاملة، وعلى ذلك فنظرة البرجوازية للقوة الاستعمارية نظرة خاطئة، أضف إلى ذلك أن الشعب المستعمَر لن يواجه الاستعمار وحيدًا بدون معونة من الشعوب المتحررة والتقدمية.

والاستعمار يدرك كل هذا أيضا، ولذلك يبدل سياساته ويستبق الأمور ويمنح الاستقلال السياسى للشعوب المستعمرة لكى يقطع عليها طريق الكفاح المسلح والثورة ضده، ولكنه عندما يرحل عن الأرض بقواته العسكرية يعود مرة أخرى بقواته الاقتصادية والثقافية، وهو يجد فى العملاء فى السلطة والأحزاب والبرجوازية والصفوة المثقفة أعوانا يعملون على تنفيذ أهدافه.

وإذن فكل الجهود المبذولة لتحويل مسار العنف الشعبى عن إصابة العدو الحقيقى تذهب هباء، لأن الشعب -بمضى الوقت- يدرك أساليب الاستعمار وأعوانه ويظل الشعب متحفزًا متوترا فى انتظار اللحظة الحاسمة التى ينفجر فيها بركان الغضب الثورى الجامح.

وعلى الرغم من يقظة السلطة واستعراضها الدائم بقوتها، فإن تفجر بركان الغضب

الثورى قد يكون بسبب حادثة تافهة تقع فى مكان ما، هذا هو ماحدث فى "صطيف" بالجزائر، وفى "الكاريير سنترال" بمراكش، وفى "مورا مانجا" فى مدغشقر، ولن تستطيع أعمال القمع أن تحطم انتفاضة الشعب عندئذ مهما بلغت هذه الأعمال القمعية من الشدة والعنف، بل على العكس يودى تزايد العنف والقمع إلى نمو الوعى الشعبى، فالوعى القومى يزداد نموا بإدراكه أن القوة وحدها هى التى تنهى المشاكل بين المستعمِر والمستعمَر.

ومع ذلك لايتراجع الاستعمار عن استخدام المزيد من القوة، لأنه يدرك جيدًا أن بمقدوره أن يستغل الغضب الناجم عن ذلك لمصلحته، وهو يفعل ذلك بالفعل ثم يعمد إلى اعتقال أحد زعماء الشعب فيتزايد العنف الشعبى لكنه يتحول عن هدفه، أى أن الشعب يأخذ فى المطالبة بالإفراج عن زعيمه بدلاً من المطالبة بالاستقلال، وعندئذ تفرج السلطات عن الزعيم المعتقل فيعم الفرح وتقام الاحتفالات فى كل مكان، ويقوم هذا الزعيم بدور اللجام الشعبى الذى يكبح الغضب والعنف، كما أنه سيكون الوسيط الذى يتفاهم معه الاستعمار بعد ذلك -على مائدة التسويات- ولذلك تعمل السلطات دائما على الإبقاء على الزعماء والأحزاب السياسية الإصلاحية.

ولكن تبقى المشكلة كما هى، فهى ليست مشكلة العنف السلطوى أو الاستعمارى والعنف الجماهيرى المضاد، ولكن المشكلة هى كيف توقف الأزمة؟

فالعنف الجماهيرى -فى الواقع- هو التعبير المباشر عن إدراك الجماهير أن مشكلتها لن تحل إلا بالثورة والعنف، ولكن كيف يصل الجمهور الجائع الذى لاخبرة له بأساليب التنظيم إلى تحقيق هدفه؟ وكيف يأمل فى النصر فى مواجهة القوة العسكرية والاقتصادية الغاشمة؟

إن الغرب يدرك -بعد هذا كله- أنه لايمكنه التمادى فى الاستعمار العسكرى الذى يولب ضده كل هذا العنف الذى تنذر به الثورات وحركات التحرر، وحتى الشعوب التى نالت استقلالها مؤخرًا أصبحت تدرك أنه لامعنى للتحرر من الاستعمار العسكرى المباشر ما لم يتبدل المجتمع بعد ذلك تبدلاً حقيقيًا.

ومعنى ذلك أن التخلص من الاستعمار ليس هو الهدف النهائى لكل كفاح تحررى، وأن الهدف الأصلى وراء كل نضال تحررى هو التخلص من النظام السياسى والاقتصادى الذى فرضه الاستعمار، أى أن الهدف هو التخلص من الرأسمالية نفسها وبناء المجتمع الاشتراكى، ولأن الغرب الاستعمارى فى مرحلة تغير الظروف -مرحلة الحرب الباردة- يدرك ذلك جيدًا فقد قرر منح كافة المستعمرات استقلالها لكى يقطع الطريق على روسيا فى تحالفها مع الشعوب المستعمرة، ولكى يتفرغ لإدارة الحرب الباردة، وهو -بالرغم من ذلك- لن يتنازل عن سيطرته السياسية والاقتصادية والثقافية على تلك الشعوب المستقلة استقلالاً زائفا، لأن البرجوازية فى هذه الشعوب بدورها فى إتقان المناورة على الشعوب التى أصبحت تطالب بالتغيير الاجتماعى بعد أن حصلت على الاستقلال وينحصر هذا الدور فى الإيهام بالديموقراطية والإصلاح الاقتصادى والسياسى.

إن الغرب الاستعمارى يدرك جيدًا أن الشعوب المستقلة قد عزز استقلالها شعورها بذاتها وكرامتها، ولكنه يعلم أيضا أن الوقت لم يتسع بعد أمام تلك الشعوب لبناء مجتمعاتها وقيمها المستقلة -فعلاً- عن الغرب، ولهذا يضحى الغرب بالمستعمرات من أجل الحفاظ على استراتيجيته النهائية فى مواجهة روسيا كوصى على الرأسمالية الدولية، فالغرب يضحى بهذه المستعمرات لكى يضمن عدم انحيازها للمعسكر المعادى له، وهو يمنح تلك المستعمرات الاستقلال لأنه يعلم تماما أن هذا الاستقلال ليس حقيقيا.

* * *

ومع ذلك وبالرغم من كافة الآثار البشعة للاستعمار، هناك الكثير من المزايا التى يمكن رصدها كأثر من آثار الاستعمار، وهى مزايا لاتظهرها الآثار المباشرة، بل تظهرها الآثار غير المباشرة، فالاستعمار يولد العنف والعنف بدوره يولد الآثار التى تظهر المزايا الناتجة عنه فى عدة مظاهر منها:

"توحد الشعب، فالتكاتف لمواجهة الاستعمار يولد هذا التوحد الذى هو رد الفعل المباشر على أساليب الاستعمار التى تستهدف تفتيت الوحدة الوطنية، وإضعاف الشعور الوطنى والقومى، وبذلك يؤدى العنف المضاد للاستعمار إلى القضاء على الإقليمية والقبلية".

كما تظهر مزية أخرى للعنف المضاد للاستعمار وهى أنه يحرر الفرد من السلبية واليأس وعدم المبالاة، كما أنه يحرر من مركب النقص تجاه الأجانب، ويرد إليه شجاعته واعتباره لنفسه، ويشعره بالمسئولية الكاملة، وكأن العنف بذلك يطهر الضمير من كافة الآفات التى منها السلبية واللامبالاة والجبن والتخاذل..إلخ.

ومن ميزات العنف المضاد للاستعمار أيضا أنه يشعر الإنسان -المناضل بالكرامة- والذات الفاعلة، كما يشعره بما بينه وبين شعبه من روابط قوية، ويشعره بقوة الانتماء والارتباط بالأرض -الوطن، الأرض - التاريخ، الأرض- البشر..إلخ.

ويقود كل ذلك فى النهاية إلى تزايد نمو الوعى القومى واكتشاف جذور وأسباب المشكلة القومية، إن الشعب يصبح مدركًا لذاته ولمشاكله، كما يتعرف على عدوه، ويتعرف كذلك على أساليب النضال العنيفة التى لامفر من استخدامها ضد العدو، ومنذ لحظة الوعى هذه يظل الإنسان متحفزًا يقظا متربصا متوتر النفس والعضلات، شاعرًا بنفسه وشعبه وأهدافه، ومتأهبا للنضال، فإذا بدأ النضال -بالفعل- فلا تراجع ولا استسلام لأن كل فعل يحكمه مبدأ "إما نحن - وإما هم".

إن الوضع الاستعمارى لايستمر فى الوجود بالقوة، ولكن هذه القوى لا يمكنها تحقيق الاستمرار الاستعمارى طويلاً دون أن تواجهها الشعوب المستعمرة بالقوة المضادة، ولما كان الغرب قد بدأ يدرك أن الاستعمار العسكرى لابد أن ينتهى زمنه، فإنه قد أخذ بنفسه يمنح الكثير من المستعمرات استقلالها، وهو يقدم على هذه الخطوة قائلاً: "تريدون الاستقلال، خذوه، وعودوا إلى القرون الوسطى" لأن الاستعمار بعد الاستقلال سوف يسحب من الدولة المستقلة كافة مؤسساته العسكرية والاقتصادية والإدارية، وسوف تجد الدولة المستقلة حديثا أن عليها أن تقبل شروط الاستعمار من جديد لكى تستطيع أن تبدأ بناء مجتمعها، وبذلك تتحول تلك الدولة إلى دولة تابعة اقتصاديا وسياسيا.

إن زعماء البلدان المستقلة يدركون هذا الوضع جيدًا ويدركون أن نعمة الاستقلال سوف تتحول بعد نهاية الاستعمار إلى لعنة الاستقلال، لأن الاستقلال يكشف الوضع الحقيقى للدولة التى زال عنها الاستعمار حديثا، والمشكلة الكبرى التى تواجهها الدولة

المستقلة حديثا هى أن الاستعمار قد عمق فيها أنماطه الاقتصادية التى لاتستطيع تلك الدول أن تغيرها بسرعة إلا إذا عرضت نفسها لكارثة حقيقية.

ولهذا نجد أن زعماء الدولة المستقلة حديثا يوجهون خطابهم إلى الجماهير كما لو كانوا لايزالون فى حالة الكفاح أو الحرب، إنهم دائما يتحدثون عن تعبئة الطاقات وضرورة القتال ضد التقاليد التى تفرض الشلل على الأمة والجبهات التى يجب النضال فيها وضرورة الشد على البطون والعمل والانتصار على الأمية ومعركة الإنجاز وحرب الفقر...إلخ.

وأيضا نجد أن الشعوب المستقلة حديثا تتجاوب مع الزعماء معتقدة أن العمل الجبار فى ظل ظروف التحرر الحديثة هو السبيل الوحيد للنهضة، لأن أوروبا حققت نهضتها بهذا الأسلوب، وهو اعتقاد خاطئ تماما، لأن أوروبا حققت وحدتها القوية بعد أن ركزت برجوازيتها الوطنية فى أيديها كل الثروات، ويشرح "فانون" لنا هذا الأمر بقوله:

كان التجار وأصحاب الحرب والكهنوت ورجال المصارف يحتكرون -فى النطاق الوطنى- الأموال والتجارة والعلوم، وكانت البرجوازية هى الطبقة التى تستمتع بأكبر نشاط وتنعم بأكبر رخاء، وكان صعودها إلى السلطة يتيح لها أن تقوم بعمليات حاسمة، كالتصنيع وتطوير المواصلات، ثم مالبثت أن أخذت تبحث عن أسواق "فيما وراء البحار".

لقد بنت أوروبا مجدها وحققت ماتنعم به من رخاء من دماء العبيد، أما الشعوب المستقلة حديثا فهى لاتملك مثل هذا التطور الاقتصادى، ولذلك لايمانع الغرب فى منح الاستقلال لأنه يعلم أن تلك الشعوب لن تعود فقط إلى القرون الوسطى بعد الاستقلال، بل إنها سوف تموت جوعًا بسبب الحصار الاقتصادى الذى يضرب حول الشعوب المستقلة، والهدف من هذا الحصار هو دفع تلك الشعوب إلى التبعية السياسية والاقتصادية، فهناك من الشعوب من يقبل بهذه التبعية، وهناك من يرفضها متحديا ومتقبلاً أن يبنى مستقبله بنفسه بالرغم من كافة الصعوبات والمشاكل التى سوف يواجهها.

ويقول "فانون" معلقا على هذا الوضع:

"هكذا نرى أن تحرر البلاد المستعمرة يضع العالم أمام مشكلة رئيسية هي: أن الصراع الأساسى الذى كان يبدو صراعا بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار، أو بين الرأسمالية والاشتراكية، يفقد منذ الآن أهميته، وتصبح المشكلة التى تملأ الأفق هى مشكلة إعادة توزيع الثروات، وعلى الإنسانية أن تلبى هذه المشكلة وإلا تزعزعت، فقد اعتقد الناس عامة أنه قد آن للعالم أن يختار بين الرأسمالية والاشتراكية، وأن على العالم الثالث أن لايكتفى بتحديد نفسه على أساس قيم مسبقة، بل على البلدان المتخلفة أن تلتمس لنفسها قيما خاصة بها، وأن تضع المناهج التى تناسبها، إن المشكلة التى نجد أنفسنا فى مواجهتها ليست هى أن نختار مهما كلف الأمر بين الرأسمالية والاشتراكية، كما حددها أناس يختلفون عنا مكانا وزمانا، إننا نعرف طبعا أن النظام الرأسمالى من حيث هو طراز حياة لايمكن أن يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية، بل العالمية، فالاستغلال الرأسمالى والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة، كما أننا نعلم أن اختيار النظام الاشتراكى الذى يلتفت برمته إلى مجموع الشعب ويقوم على اعتبار أن الإنسان أثمن قيمة، سوف يتيح لنا أن نسير بشكل أسرع وأكثر انسجاما، وسيحول لذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة".

لقد قلنا إن الأمم المستقلة حديثا مضطرة إلى الرد على التحدى الغربى بتحدٍ آخر هو تشغيل عمالها واستغلال كل قواها، ولكنها محتاجة -أيضا- إلى تغيير كل شئ فى نظامها، ومحتاجة إلى إعادة النظر فى كافة أمورها، وهى -كما قلنا- مضطرة إلى السير بنفس النظم التى أنشأها النظام الاستعمارى، وخاصة نظام الدورات الاقتصادية الجامدة، لأن تغيير هذا النظام بشكل فجائى يعرض الدولة إلى كارثة.

وهى محتاجة بعد ذلك كله إلى رءوس أموال، وإلى تغيير شروط العمل، وبدون ذلك سوف تنقضى قرون طويلة قبل أن تستطيع رد الإنسانية إلى العالم الذى أنزله الاستعمار إلى الحيوانية كما يقول "فانون".

* * *

إن النهضة فى هذه الدولة المتخلفة تحتاج إلى إعادة توزيع عادل للثروة العالمية، والحق أن الغرب لابد أن يقوم بهذه الخطوة، ليس على سبيل المعونات والصدقات، بل على سبيل رد الحقوق إلى أصحابها، إن الرخاء الذى تنعم به أوروبا سببه الثروات التى نهبت

من العالم المتخلف، ثم إن الرأسمالية العالمية لايمكنها أن تستمر إلا بدعم هذا العالم المتخلف الذى يحتاج إلى النمو، فإذا هى قطعت السبيل على هذا العالم فإنها بذلك تدمر ذاتها وتخنق اقتصادها نفسه، لأن الرأسمال سوف يبقى عندئذ محصورًا فى أوروبا فقط، وهذا يعنى تجمده، ويعنى -أيضا- احتضار الرأسمالية العالمية.

ومن جهة أخرى فإن الشعوب التى تركها الغرب سوف تعمل على الاكتفاء الذاتى، وبذلك ستحرم أوروبا والصناعات الغربية من أسواق العالم الثالث، ويترتب على ذلك أن ترقد الآلات والمصنوعات فى مخازن الغرب، وينشأ الصراع فى الأسواق الأوروبية بين الأوساط المالية والشركات الكبرى، ويؤدى ذلك -أيضا- إلى دفع الطبقة العمالية الأوروبية إلى خوض صراع وكفاح مباشر ضد النظام الرأسمالى.

إذن فالحل الوحيد هو أن يساعد الغرب الدول المتخلفة وبدون شروط مرهقة كثيرة، وتلك ضرورة تمليها الوقائع على الغرب، فليس على الشعوب المتخلفة أن تستجدى الغرب أو أن تخضع لشروطه الاستعمارية، لأن ماسوف يدفعه الغرب ليس إلا التعويض العادل عن جرائم الاستعمار، وهو على ذلك جزء مما سلبه الغرب من ثروات تلك الشعوب.

إن هذا الحل وحده هو الكفيل بأن ينقذ أوروبا من المصير المحتم الذى يقضى عليها بالاحتضار، فإذا هى ظلت جامدة على موقفها العالمى المضاد للإنسانية، فستظل كذلك نهبا للخوف فى مواجهة الجموع الملونة الساغبة، وسوف تظل أوروبا تتصور العالم الثالث كما لو كان الموجة العاتية التي سوف تبتلع أوروبا كلها، وسوف تبذل أوروبا المزيد من الجهد لكى تفرق شمل القوى التقدمية التى تريد قيادة الإنسانية إلى السعادة، ولكن دون جدوى.

إن العالم الثالث لايبغى أن يشن حربا صليبية على أوروبا، وكل مايطلبه من الذين أبقوه عبدًا خلال قرون هو أن يساعدوه على رد الاعتبار للإنسان، وعلى تحقيق النصر للإنسان فى كل مكان وإلى الأبد كما يقول "فانون"، ويتطلب إنجاز هذا العمل معاونة الجماهير الغربية الواعية كما يتطلب المزيد من الجهد والإصرار والدراسة والتجديد

والكفاح من جانب جماهير العالم الثالث التى تحلُمُ وتعمل من أجل بناء المستقبل الإنسانى المشرق.

* * *

الانطلاق العفوى
والشعور القومى

* الانطلاق العفوى

لا شك فى أن العنف فى البلاد المستعمرة يكشف عن "الهوة" الواسعة بين الجماهير والأحزاب السياسية الوطنية التى تكتفى فى نضالها بالمطالبة بعدة مطالب إصلاحية يسيرة، والتى لايصل نضالها السياسى إلى حد التطابق مع الجماهير فى الأخذ بمبدأ العنف النضالى.

كما أن الحزب السياسى نفسه فى تلك البلاد ليس إلا أداة مستوردة من الغرب الاستعمارى، وكونه كذلك يفرض على قادته نمطا من الممارسة السياسية الآلية التى تستخدم (الحزب) هذه الأداة النضالية الحديثة فى مجتمع مختلف، متخلف، بدائى، عبودى، الأمر الذى يضعف الحزب ويجعل قياداته حذرة فى ممارستها السياسية، كما أن الحزب يركز فى نضاله على سكان المدن "العمال أصحاب الحرف، التجار، المثقفين"، الذين حققوا درجة من الوعى تجعلهم فى مجابهة صريحة مع قوام الأمة، وبالمقابل يتجاهل الحزب الطبقة الفلاحية ويتهمها بالعطالة والعقم، بيد أن ذلك كان من أثر الاستعمار نفسه الذى عمل دائما على تجميد وتهميش الطبقة الفلاحية التى تعيش المرحلة الاقطاعية ويخشى الاستعمار تحولها الثورى، لذا يعمل على تجميد وتهميش وجودها داخل وطنها ذاته.

وهكذا ينشئ الاستعمار الحواجز بين أبناء وفئات الوطن الواحد، ويقوى الحواجز لتؤدى الدور المطلوب منها، وهو عرقلة الاتصال والتوحيد الشعبى الذى يقود إلى بدء الكفاح المسلح والتحرر الوطنى، بل إن الاستعمار يودى نفس الدور فى البلدان التابعة بعد تحررها بهدف عرقلة نموها وإفساد تطورها واستقلالها وتحطيم عناصر نهضتها.

وبالرغم من أن الطبقة الفلاحية تظل معزولة عن الأحزاب وعن الحركة الوطنية لأسباب كثيرة منها مايتعلق برتبة الفلاح من أبناء المدن ومنظماتهم السياسية، ومنها مايتعلق بنظرة الأحزاب الوطنية إلى الفلاح، ومنها مايتعلق بالحواجز التى يقيمها الاستعمار، إلا أن الطبقة الفلاحية تتدخل فى الكفاح القومى بالعنف الذى هو وسيلتها الوحيدة لكى تشارك فى النضال التحررى، وأحيانا تحمل هذه الطبقة عبء الكفاح عن المدن بعد انتشار القمع البوليسى الذى يستهدف قيادات الأحزاب الوطنية فى هذه المدن، فإذا بدأ العنف الريفى بدأت الثورة المسلحة ضد الاستعمار، ولكن للأسف الشديد تظل

الأحزاب الوطنية معزولة عن المشاركة الفعلية فى الحرب، ويعمد القادة فى هذه الأحزاب إلى استثمار الكفاح المسلح الريفى الذى لم يكن متضمنا فى البرنامج الحزبى، يحدث ذلك لأن الحزب يأمل فى استمرار الثورة الفلاحية بمنطقها وأدواتها العفوية، وليس بمنطقه أو إمكاناته التنظيمية، ولذلك لايتدخل الحزب فى هذا الكفاح الريفى ولو بالإرشاد والتوجيه، وبهذا تضيع فرصة استثمار الثورة أو تطويرها أو تنظيمها أو حتى كسب الريف إلى صفوف الحزب، ويكتفى الحزب وقادته بالتبرؤ من الثورة أمام الاستعمار ورموزه.

إن عدم الاتصال بين الحزب وجماهير الريف يظل قائما حتى بعد الاستقلال، ويؤثر ذلك على موقف الفلاح من التجديدات الاجتماعية -ولو كانت تقدمية- لأن هذا الفلاح لم يتلق التوعية السياسية الكافية نتيجة انعزال الحزب عنه فى كافة الأحوال.

ولاشك فى أن الموقف العنيد للقروى من التجديدات الاجتماعية بعد التحرر يؤثر سلبا على مسيرة البناء الوطنى، ومهما كانت القيادة تقدمية فإن عملها سوف يظل واهنا بطيئا نتيجة عزلة الفلاح عن القيادة وعن سائر طبقات الأمة، وهذه الحالة -لاشك- تغرى الحكومة الفتية بتركيز الحكم وإخضاع الشعب بالقوة، إن الحكومة الفتية لاتدرك أن موقف الفلاح من برنامجها الجديد نتيجة لعزلته القديمة ولعدم وعيه السياسى أو بالأحرى لعدم قيامها بدورها فى التوعية السياسية، ولذلك فهى تشك فى موقف الفلاح منها، ولذلك تعمد إلى القسوة قائلاً: "لابد للمرء من استعمال السوط إذا أراد إخراج هذه البلاد من القرون الوسطى"، والنتيجة هى تصدع الوحدة القومية وتعطيل انطلاق الأمة، بيد أننا يجب ألا ننسى أبدًا أن ذلك حدث بسبب تهاون الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية فى عهد الاحتلال، وتفادى هذا الموقف لايتم إلا بوجود برنامج اجتماعى يتناول جميع فئات الشعب، لأن الجماهير الفلاحية هى القوى الوحيدة الثورية -بذاتها- على حد تعبير "فانون"، ولذلك لايجب عزلها أو تهميشها سواء أثناء الاحتلال أو بعد التحرر ، بيد أن توعية تلك الجماهير وضمها إلى صفوف الحركة الوطنية لابد أن يبدأ حتى فى ظل الاحتلال لأن مأزق الحكومة الفتية بعد التحرر سوف ينبع من هذه الجماهير الريفية، وحتى إذا لم تستطع الحكومة الفتية أن تعرض برنامجا اجتماعيا شاملاً،

فإن مواجهتها ستكون مع العمال، والعمال لايمكنهم إلا القيام بانقلاب على الحكومة، وهذا الانقلاب نفسه لايأخذ فى الاعتبار تلك الجماهير الفلاحية، وهكذا سوف تتكرر الكارثة ما لم يوجد منذ البدء البرنامج الشامل الاجتماعى لجميع فئات الشعب.

والمشكلة إذن تكمن فى أن الفئة الريفية تؤمن بالعنف والثورة المسلحة، أما الأحزاب السياسية فتتمسك بالشرعية وتنبذ العنف، بل إن وجودها نفسه كما يقول "فانون" هو نفى دائم لقيام ثورة مسلحة، ولكن الثورة المسلحة هى السبيل الوحيد لتبديل الأوضاع تبديلاً جذريًا، ولذلك فهى قائمة ومندلعة لامحالة، وعند اندلاعها تتوحد معها الجماهير وتصبح الأحزاب السياسية ذاتها هى المعزولة مادامت الثورة لاتزال فى الريف، ولكن لابد أيضا أن تنتشر الثورة من الريف إلى المدن، وهى تنتشر بالفعل ليس عن طريق الأحزاب وقادتها، بل عن طريق الريفى المهاجر من الريف إلى المدينة، لذلك طحنته المدينة وظل ضائعا فيها، فالجموع الريفية الزاحفة إلى المدينة هى أكثر فئات الشعب ثورية فى المدينة يليها كافة الفئات المهمشة والعاطلة والمنبوذة، فالنضال وحده هو القادر على إعادة دمج هذه الفئات فى جسم المجتمع، إن "فانون" يقول معلقا على ذلك: "إن هؤلاء جميعا يستردون اعتبارهم فى نظر أنفسهم وفى نظر التاريخ، حتى المومسات والخادمات واليائسات وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار يستردون إذ ذاك توازنهم ويسيرون فى موكب الأمة التى استيقظت".

إن انتقال الثورة من الريف إلى المدن يبدل ملامح الكفاح، إذ يشعر قادة الثورة بثقة أكثر فى أن السياسة التقليدية عقيمة، وأن الثورة المسلحة العفوية هى الطريق الوحيد للتحرر، فأمام زحف الثورة تتراجع جيوش الاستعمار التى كانت موجهة إلى الريف، ويبدأ الاستعمار بعثرة قواه فى أعمال القمع داخل المدينة، وتظل الثورة فى استمرارها العفوى، لاخطب ولابرامج ولاقرارات، الهدف واضح وبسيط هو "التحرر".

بمثل هذه العفوية تنشأ فى كل منطقة حكومية مصغرة تتسلم زمام الأمور ونرى السلطة الوطنية فى كل مكان، إن هدف كل جماعة من جماعات الثورة المسلحة هو تحرير المنطقة التى هى فيها، هذا هو الهدف وهذا هو البرنامج، ولن تظل كل جماعة معزولة عن

الأخرى، بل تبدأ الوفود بين المناطق لتصفية الخلافات أو لتحريك المناطق التى ظلت ساكنة، وهذه الوفود هى أول طريق لربط الثورة بعضها ببعض، وتتحول القرى إلى معسكرات للقتال.

ويظهر هذا التضامن الرائع بوضوح أكثر عندما يبدأ العدو فى المرحلة الثانية بشن هجومه، إن الاستعمار لن يسكت، بل يعيد تنظيم صفوفه ويبدأ باتباع الأساليب الخاصة بمقاومة الثورة وفقا لطبيعة الثورة ذاتها، إن العدو يقوم بضرب أكبر مناطق التجمعات الثورية تركيزًا، وبذلك تفقد الثورة فى المرحلة الأولى ضحايا كثيرة نتيجة لحماس المواجهة الوطنية العفوية المندفعة لتلبية نداء التحرر الوطنى.

على أن عفوية الانطلاق الفورى لن تلبث أن تميل نحو الواقعية اليومية العملية، وهكذا تهدأ الاندفاعات الحماسية ويبدأ دزس الوقائع، وإعادة التحليل والتفسير لكافة الأحداث، ويبدأ الأخذ بأسلوب التنظيم الثورى الذى يفرض على المواجهة أسلوب حرب العصابات المنظمة، ويؤدى التنظيم السياسى لحرب العصابات دورًا مهما فى الحفاظ على قوى الثورة المسلحة من التشتيت أو التفتت.

وتستمر الثورة المسلحة ويستمر الاستعمار فى تكثيف استخدام الأساليب المختلفة لقمع الثورة، ويلجأ الاستعمار إلى تجنيد من يستطيع تجنيدهم من العملاء فى صفوفه، كما يلجأ إلى استخدام "الأساليب السيكولوجية"، إن العدو يحلل قوة الثورة، ويدرس الثغرات فيها، ويدرك ماتعانيه من فراغ أيدلوجى، ومن فقدان للاستقرار المعنوى فى صفوف بعض طبقات السكان، ويشعر قادة الثورة أن العدو يحاول تخريب الأمة فتصبح التوعية السياسية ضرورة حيوية ويصبح إيجاد البرنامج الموجه للثورة ضروريا كذلك، كما يصبح ملء الفراغ الأيدلوجى أمرًا حيويًّا جدًّا، وقادة الثورة يعلمون أن الاستعمار أقوى وأغنى ويملك احتياطيات أكبر، لذلك فهم يدركون أن عليهم ألا يبعثروا قواهم وألا يلقوا بها دفعة واحدة فى مواجهة المستعمر.

* * *

وفى النهاية قد يعمد الاستعمار إلى إزالة كل ظواهر وجوده الوحشية، تخفيفا للنفقات أو للحيلولة دون بعثرة قواه، ولكن لايعنى ذلك زوال الاستعمار -نفسه- تماما، بل إن ذلك سوف يتبعه المزيد من التحكم الاستعمارى فى مصير البلاد ويجب على الشعب أن يفهم ذلك، وأن يدرك أن نهاية الكفاح المسلح لاتعنى نهاية الاستعمار، وأن كفاح التحرر لابد أن يستمر من أجل البناء الوطنى المستقبلى، أى أن على الشعب أن ينتقل -بتوعية القادة- من أفق الوطنية العامة الغامضة إلى أفق الوعى الاجتماعى والاقتصادى، ثم يجب ألا ننسى أن هناك عدة فئات شعبية حققت الكثير من المصالح الخاصة أثناء الاحتلال، وهناك جنود مأجورون وعملاء خونة للاستعمار، وكل هؤلاء سوف يظهرون بعد التحرير ويحاولون الحصول على المزيد من المصالح الاقتصادية، هؤلاء اللصوص الخونة سوف يعرقلون مسيرة البناء الوطنى المستقل، ويجب على الشعب أن يواجههم وأن يطهر صفوفه منهم لكى لايترك الفرصة سانحة لأى تضليل أو أكاذيب باسم الوطنية.

* * *

لقد أكد العنف الثورى خلال كافة الثورات التحريرية أنه السبيل الوحيد لتحقيق التحرير، ولقد أثبت العنف الثورى إخفاق كافة الأحزاب الوطنية المتمسكة بالشرعية والمناهضة للعنف فى تحرير الوطن بالتفاوض والتفاهم مع الاستعمار، إن جميع المكاسب التحررية هى وليدة العنف الثورى، العنف التلقائى الذى ينظمه القادة الثوريون فيما بعد، ذلك العنف عندما يصبح منظما واعيا يصبح أيضا قادرًا على تحليل الواقع الاجتماعى وامتلاك مفاتيحه.

وبدون هذا النضال، وبدون الوعى المترتب عليه، لن تحصل الشعوب المستعمرة على أى شئ حقيقى أو جذرى، وقد تحصل على بضعة إصلاحات تافهة، وبضعة شعارات وطنية، أما جموع الشعب فستظل تحيا فى القرون الوسطى، وسوف يظل الاستعمار قائما.

* * *

الشعور القومي *

دلت معظم التجارب على أن المعارك ضد الاستعمار لا تبدأ دائما على المستوى القومى، ولايؤدى الشعور القومى فى هذا الكفاح دورًا رئيسيا، لأن الهدف الأساسى لكفاح الشعوب فى المراحل الأولى للاستعمار هو إزالة بعض المظالم المتفاوته بين العقوبات الجسدية، والعمل الإكراهى، وتفاوت الأجور، وتقييد الحقوق السياسية..إلخ، أى أن هذا النضال يكون موجها ضد الاضطهاد وبدافع الديموقراطية أولاً، ثم يتحول بعد ذلك إلى النضال القومى بعد أن يتحرر من الإيهام الليبرالى، ولكن المشكلة فى البداية هى دائما عدم استعداد الصفوة للانخراط فى الكفاح، وعدم تواصلها مع الجماهير وجبنها فى اللحظات الحاسمة من لحظات الكفاح الأمر الذى يؤدى إلى مزالق فاجعة.

ولهذا يقول "فانون" مؤكدًا: "إن الشعور القومى مالم يكن تجسيدًا منسجمًا لأعمق مطامح الشعب كله، ومالم يكن ثمرة حية مباشرة نابضة للتعبئة الشعبية، فلن يكون فى أحسن الأحوال إلا شكلاً لا مضمون له، سريع الزوال، قليل الدقة والوضوح، والصدوع التى نجدها فيه عندئذ هى السبب فى أن البلاد الناشئة المستقلة كثيرًا ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة إلى القبلية، ومن مستوى الدولة إلى مستوى العشيرة، إن هذه الشقوق هى السبب فيما تعانيه الاندفاعة القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية، إن مواطن الضعف هذه وما تشتمل عليه من أخطار فادحة، إنما هى نتيجة تاريخية لعجز البرجوازية الوطنية فى البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبى، أى عن استخلاص معانيه ودوافعه.

إن مشكلة البرجوازية الوطنية الصاعدة بعد تسلمها سلطة الحكم بعد الاستقلال هى ضعف القوة الاقتصادية، واقتصار نشاطها على التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة، وابتعادها عن الصناعة، وابتعادها عن الإنتاج، والابتكار، والبناء، والعمل، وتمركز نشاطها -كله- فى أعمال الوساطة، إن سيكلوجيتها سيكلوجية رجل أعمال لاسيكلوجية رجل صناعة، ولذلك لن تنجح هذه البرجوازية مالم تضع نفسها فى خدمة الشعب، أى مالم تنكر نفسها كبرجوازية.

إن الأحزاب الوطنية تعمل -منذ البدء- لتحقق هدفا قوميا تماما، هو الاستقلال وتعبئة الجماهير من أجل الاستقلال، ولكنها في إطار هذا النضال تهمل كل ماهو بعد الاستقلال، ولذلك فهي تفتقر إلى البرامج الاقتصادية، ولاتعرف شيئا عن النظام الذى تريد إقامته بعد الاستقلال، فهذه الأحزاب لاتعرف شيئا عن الاقتصاد الواقعي لبلادها، ولاعن الاقتصاد الممكن بموارده المتاحة، ولذلك تفشل البرجوازية بعد التحرر في قيادة البلاد فشلاً ذريعا، وتلجأ البرجوازية الوطنية نتيجة لهذا الفشل إلى تأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية، وهى تعتقد أن هذا التأميم يعنى نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعمارى إلى أهل البلاد، دون أن يدل هذا التأميم على وضع مجموع الاقتصاد فى خدمة الأمة وتحقيق احتياجاتها أو تنظيم الدولة على أسس من العلاقات الاجتماعية الجديدة، إنها تكتفى بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوت التجارة وتحتل مكان المستعمر لكنها لاتملك الوسائل المادية أو العقلية لتوظيف هذا "التأميم" التوظيف الصحيح لصالح الأمة.

وعندما تضع هذه البرجوازية يدها على الاقتصاد على النحو السابق تفرض على الشركات الكبرى الموجودة أو التى تريد الدخول إلى البلاد أن تمر من خلالها، أى أن دور البرجوازية يصبح الوساطة بين البلاد وبين رأسمالية متخفية تحت قناع "الاستعمار الجديد"، وعندئذ لايمكن أن يكون دور هذه البرجوازية الوطنية تغيير أحوال الأمة لأن هذه البرجوازية تكون -بعد تأهيلها- قد اختارت القيام بدور الوساطة بين البلد المتخلف ورأسمالية الاستعمار الجديد.

وبالطبع تعمل رأسمالية "الاستعمار الجديد" على أن تظل هذه البرجوازية -الوطنية المزعومة- عاطلة، وعاجزة عن تصنيع البلاد والسير بها نحو الإنتاج، ولذلك نرى السياحة -مثلاً- فى البلدان المتخلفة تسمى "صناعة"، وأيضا "صناعة وطنية"، إن الاقتصاد كله يوجه نحو الاستهلاك لانحو الإنتاج لأن البلد يجب أن يظل سوقا للرأسمالية الغربية "الاستعمار الجديد".

وإذا كان انحطاط هذه البرجوازية -على هذا النحو- يقودها إلى الربح على حساب

الأمة ومستقبلها، فما من أحد فى الأمة يكسب سوى هذه البرجوازية، بل إن البرجوازية تحمل خطيئة أعظم هى انقياد الجماهير العمالية وأصحاب الحرف الصغيرة خلفها وخلف المنطق البرجوازى الذى يحرم البلد المتخلف من نمط إنتاج قومى هو اللبنة المهمة الأساسية لكل بناء قومى نهضوى.

إذن فالتأميم الذى تقوم به البرجوازية ليس حقيقيا، وكذلك التنمية المزعومة مادامت البلد ستظل عاجزة عن البناء القومى وعن تجاوز واقعها المفروض عليها من الاستعمار الجديد، أى أنها ستظل مجرد سوق استهلاكية مكرسة لخدمة الاقتصاد الغربى.

ولما كان الاستعمار الجديد يعمل على الحفاظ على تلك البلدان كأسواق فإنه يمنح بعضها امتيازات أكثر، بل يمنح بعض المناطق امتيازات أعظم من الأخرى داخل البلد الواحد لكى تزداد مكاسبه، ولكن هذا يؤدى إلى تغذية الصراعات القومية والعصبيات الأقلية زالإقليمية والدينية، وكل هذه الصراعات تشوه -فى النهاية- الشعور القومى، وتقضى على الوحدة القومية وتشغل الشرائح والفئات القومية عن البناء القومى بالصراعات والصدوع والتشققات.

فإذا كان بإمكان الاستعمار الجديد أن يحدث ذلك الصدع فى الوحدة القومية على المستوى الإقليمى والقطرى، فإنه أيضا يفعل نفس الشئ للحيلولة دون قيام اتحاد قومى قارى مثل ذلك الاتحاد الذى يمكن أن يحقق الوحدة الأفريقية التى هى الخطوة الأساسية لتحرير القارة من الاستعمار الجديد.

ولذلك يحرص الاستعمار الجديد على تنمية وتعميق الشعور بالخلافات القومية والدينية، ولذلك يحرص الغرب الاستعمار على تمويل الأصوليات وتقوية موقف زعماء الطوائف الدينية، لأن لهؤلاء دورهم المهم فى تفتيت الشعور القوى وقطع الطريق على كل وحدة ضد الاستعمار.

ولنفس السبب يحرص الاستعمار الغربى على تقسيم أفريقيا إلى قسمين: قسم أبيض وقسم أسود، ثم يقسمونها إلى أفريقيا جنوب الصحارى، وأفريقيا شمال الصحارى، ويغذون الاعتقاد بأن أفريقيا البيضاء وليدة حضارة عريقة ترجع إلى آلاف السنين، وأنها

تنتمى إلى حوض البحر المتوسط، ولذلك فإنها امتداد لأوروبا وأنها تشارك فى الحضارة الإغريقية اللاتينية، أما أفريقيا السوداء فهى على النقيض تماما، إنها بدائية متوحشة .

والبرجوازية الوطنية المزعومة تساعد الاستعمار فى كل ذلك لأنها تشربت أفكاره، وليس غريبا -لذلك- أن نجد فى أفريقيا ذاتها إيمانا قاطعا بالمنطق الغربى العرقى الذى يقول: إن السود لايمكن أن ينفذ المنطق إلى عقولهم ولا يمكن أن يفهموا العلوم، ولذلك يعاملون معاملة أشباه العبيد، وليس من المستغرب أيضا أن يسأل طلاب أفريقيا البيضاء طلاب أفريقيا السوداء فى الجامعات: هل فى بلادكم بيوت؟ هل تعرفون الكهرباء؟ هل يأكل أهلكم لحوم البشر؟

بل ليس مستغربا أن يقول بعض زعماء أفريقيا السوداء: "ليس الخطر أن يعود الاستعمار الغربى إلى بلادكم بل الخطر كل الخطر أن يغزو بلادنا عرب الشمال".

لقد أرادت أفريقيا أن تحطم الاستعمار، لكن ها هو الاستعمار الجديد والبرجوازيات الوطنية المزعومة تحول دون تحقيق هذا الحلم تحقيقا كاملاً، لأن زوال الاستعمار العسكرى التقليدى -كما قلنا- لايعنى زوال الاستعمار تماما، ولذلك يقول "فانون" متحسرًا:

"لقد قررت البرجوازيات الوطنية التى تعرف أغراضها حق المعرفة أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المنسق الذى يقوم به مائتان وخمسون مليونا من البشر فى سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللا إنسانية، لذلك علينا أن نعلم أن الوحدة الأفريقية لايمكن أن تحقق إلا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب، أى رغم أنف البرجوازية ومصالحها".

إن البرجوازية على الأصعدة الداخلية وفى الأطر الدستورية لاتجسد سوى عجزها، ويبدو ذلك فى فساد النظام البرلمانى، وفى سيادة الحزب الواحد الذى هو الشكل الحديث للديكتاتورية البرجوازية، وفى اختيارها الدائم لأسهل الحلول التى تؤمن مصالحها كطبقة بغض النظر عن مصالح الأمة.

ولابد -بعد ذلك- أن ينحدر الاقتصاد للدولة الفتية نحو بنيان الاستعمار الجديد،

فالاقتصاد أصبح موجها والميزانية تعتمد على القروض والهبات من الاستعمار الغربى ذاته الذى يتهافت على أبوابه الرؤساء من أجل المزيد من القروض والهبات، ويبدأ الشعب فى إدراك الخيانة التى يرتكبها الزعماء، وينطوى الوجدان الوطنى الشعبى على القلق والإحباط والبؤس والشعور بالمهانة نتيجة انعدام عدالة توزيع الثروة، ويتضخم هذا الشعور مع الوقت فيتوقع الشعب الغد العنيف الذى يأتى حاملاً معه انفراج الأزمة، والسلطة لاتقابل هذا الشعور من جهتها سوى بالمزيد من تقوية قبضة الديكتاتورية على البلاد حتى تأمن البرجوازية الحاكمة على نفسها من المخاطر التى تلوح فى الأفق.

أما دور الزعيم فهو كما يلخصه "فانون" متأسفًا، ينحصر فى: "وقف سير الشعب -موضوعيا- ويعمل على طرده من التاريخ أو منعه من دخول التاريخ، لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرر يوقظ الشعب ويعده بزحف بطولى جذرى، أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخدير الشعب وتنويمه، ويذكره ثلاث مرات أو أربعا كل عام بعهد الاستعمار طالبا منه أن يقدر الطريق الطويل الذى قطعته البلاد".

لكن الشعب يعجز -بالفعل- عن تقدير هذا الطريق لأنه لايشعر بأن شيئا قد تغير التغير الجذرى الذى كافح من أجله، بل هو يدرك أن الطريق قد انتهى بالقادة والزعماء إلى الخيانة، وكما يتبدل دور الزعيم على هذا النحو يتبدل أيضا دور الحزب الوطنى الذى قاد كفاح التحرير، ويتحول الحزب إلى حاجز بين الجماهير وبين القيادة، لأن الحزب لم يعد ممثلاً لمصالح الجماهير بل أصبح -واقعيا- ممثلاً للفئة الحاكمة، أو مجرد نقابة للحفاظ على مصالح البرجوازية الحاكمة.

إن دور البرجوازية ينحصر إذن -بعد التحرير- فى أعمال الوساطة بهدف الربح، ولكن النظام القائم يتحول بالضرورة إلى ديكتاتورية لحماية البرجوازية، ولكن يستحيل أن يدوم هذا الوضع إلى الأبد، ولذلك فالنتيجة هى أن البرجوازية تتحرك فى مكانها ولاتتجاوزه، إنها لاتستطيع أن تكون سوى برجوازية مستغلة، ولأن البرجوازيات فى البلدان المتخلفة مختلفة فى النشأة عن البرجوازية الغربية، بل مختلفة أيضا فى التطور، فإن قيام مجتمع برجوازى حقيقى وطنى فى هذه البلدان من الأمور المخفقة لامحالة، والشعب

نفسه يدرك ذلك بمجرد إدراكه لخيانة البرجوازية وقادتها بعد التحرير.

ولذلك يقول "فانون": "إنه لايجب أبدًا ألا تتوفر للبرجوازية شروط الوجود والازدهار، وبتعبير آخر يجب أن ينصب الجهد المتعاون المنهوق الذى تقوم به الجماهير المنظمة فى حزب، ويقوم به المثقفون الواعون وعيا رفيعا والمسلحون بمبادئ ثورية، يجب أن ينصب هذا الجهد على سد الطريق أمام قيام هذه البرجوازية العقيمة الضارة"، ويؤكد "فانون" رأيه ذلك بقوله: .

"إن المسألة النظرية التى تطرح منذ خمسين عاما حين يعالج تاريخ البلدان المتخلفة أعنى: هل يجب الوثب فوق المرحلة البرجوازية أم لا؟ هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثورى وليس على الصعيد النظرى، إن المرحلة البرجوازية فى البلاد المتخلفة لاتكون مبررة إلا إذا كانت البرجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكتيكية مايكفى لبناء مجتمع برجوازى، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة، لتصنيع الزراعة، وأخيرًا لقيام ثقافة وطنية أصيلة".

ويستطرد "فانون: معززًا هذا الرأى بقوله:

"إن برجوازية كالبرجوازية التى نشأت فى أوروبا قد استطاعت أن تصنع أيدلوجيا، مع تعزيزها لقوتها الخاصة، إن تلك البرجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة العلمانية، نجحت نجاحا عظيما فى مهمة جمع الرساميل، وأعطت الشعب حدًّا أدنى من الرخاء، أما فى البلاد المتخلفة فقد رأينا أنه ليس هناك برجوازية حقيقية، بل فئة محتكرة طويلة الأنياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافه، وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة الاستعمارية القديمة، إنها برجوازية رخيصة، عاجزة عن الابتكار، تتحول شيئا فشيئا لا إلى نسخة من أوروبا، بل إلى كاريكاتور مشوه لأوروبا".

لذلك فإن النضال ضد البرجوازية لايجب أن يكون فحسب لأنها تعوق نمو الأمة نموًا شاملاً منسجمًا، بل لأنها فى الحقيقة لاتقوم بأى دور وليس لها أى فائدة لأنها برجوازية تافهة فى أرباحها وأعمالها وأفكارها، وهى تغطى كل أنواع تفاهتها بالمظاهر الفاخرة المستوردة".

إن دور البرجوازية ينحصر فى مشاركة الاستعمار الجديد فى اقتسام الغنائم، وإعادة تصديرها إلى الخارج، لأن هذه البرجوازية أسوأ من المستعمر نفسه فى ظنها بنفسها وبلادها، وهى بذلك تستنزف بلادها وتعوق نموها وتطورها وتعزز وتعمق جذور نموذج "الاستعمار الجديد" فى التاريخ الحديث للبلدان المتخلفة.

فى مثل هذه البلدان المتخلفة التى تتحكم فيها البرجوازية العملية والاستعمار الجديد يجب أن يكون لأحزاب المعارضة دورها الفعال رغم سيادة نظام الحزب الواحد وأعمال القمع البوليسى ضد المعارضة، ويجب أن ينشأ المزيد من الأحزاب الشعبية لفرض مبدأ "الحزب سلطة الشعب"، وعلى الأحزاب المعارضة أن تحول بين البرجوازية ودورها العميل الذى ينزل بالمجتمع إلى الدرك الأسفل، وذلك عن طريق بث الوعى القومى وتبصير الشعب بدوره وبدور البرجوازية، وأيضا بتحويلات الوضع الاستعمارى العالمى ومصالحه فى البلاد المتخلفة.

إن الأحزاب هى الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الشعور القومى وبعثه إزاء البرجوازيات العميلة، ولكنها فى مواجهة القمع البوليسى تتنازل عن دورها، ويلجأ الكثير منها إلى أسلوب العمل السرى، بيد أن "تربية الجماهير" أو تنويرها بحقيقة وضعها القومى من أهم بواعث النضال التحريرى، ومن أهم بواعث الحركة النهضوية المستقلة عن الاستعمار الجديد، على أن كل حركة نهضوية لابد لها -أولاً- من ضرب البرجوازية العميلة والوثوب فوق المرحلة البرجوازية لعدم جدواها للمجتمعات المتخلفة.

* * *

إن التنوير الذى هو أهم أهداف النضال التحريرى هو الذى ينضج الوعى القومى، فإذا أرادت الأمة أن تتجنب الكثير من النكسات كان عليها أن تتجاوز وعيها القومى بعد إنضاجها، إلى وعيها السياسى والاجتماعى، لأنه لا وجود للأمة -كما يقول فانون- إلا ببرنامج تنضجه قيادات ثورية وتعتنقه الجماهير على أساس الوعى السياسى والاجتماعى الناجح، ثم إن هذا البرنامج لن يوضع فى حيز التطبيق إلا بتوظيف الجهد القومى التوظيف الأمثل، وهذا التوظيف -بدوره- لن يتم فى عدم وجود الوعى السياسى الاجتماعى.

ومن جهة أخرى يجب أن يرتبط عمل الجماهير في هذا الكفاح بعمل الشعوب المتخلفة وكفاحها في كل مكان، فالجهد الجماعي الموحد المؤسس على الشعور بالمصير المشترك يحقق النجاح ويكثف القوى ويحول بين الاستعمار الجديد وتفتيت قوانا وجهودنا القومية.

على هذه الدرجة من الأهمية يكون الوعى القومي، وعلى نفس الدرجة تكون ضرورة محاولة تجنب مزالق الشعور القومي الذى ينتج عن انقياد الجماهير خلف الدعاية البرجوازية المضللة، وعلى نفس الدرجة من الأهمية تكون ضرورة وجود برنامج تطرحه القوى الثورية وتلتف حوله الجماهير، وهذا لن يحدث -بدوره- إلا نتيجة التنوير الذى يهدف إلى توحيد القوى الشعبية بالقوى الثورية فى وحدة ثورية شعبية هدفها ضرب البرجوازية وتجاوزها من أجل بناء المجتمع وتطويره وتحريره بعد تنويره.

* * *

* الثقافة القوميـــة

فـى المؤتمـر الثـانى للكتـاب والفنـانين السـود (رومـا ١٩٥٩) ألقـى الرئيـس "سـيكوتورى" خطابـا عنوانـه: "الزعيـم السياسـى كممثـل لحضـارة"، قـال فيـه: "ليـس يكفـى أن تؤلـف أغنيـة ثوريـة حتـى تشـارك فـى الثـورة الأفريقيـة، وإنمـا ينبغـى أن تصنـع هـذه الثـورة مـع الشـعب، ثـم تـأتى الأغـانى مـن تلقـاء ذاتهـا، يجـب أن تكون عنصرًا من عناصر الطاقة المجندة كلها لتحرير أفريقيـا وتقدمهـا وسـعادتها، وليـس هنـاك أى مكـان خـارج هـذه المعركـة، لا للفنـان ولا للمثقـف الـذى ليس منخرطا هو نفسه وليس معبأ كله مع الشعب فى المعركة الكبرى التى تخوضها أفريقيا والإنسانية المعذبة".

والواقـع أن هـذه المهمـة هـى رسـالة جيلنـا الحالى، إذ لكل جيل رسالته التى يجب أن يقوم بهـا، والتـى لايجـب أن يصرفـه عنهـا لـوم الأجيـال السـابقة، لقد أدت الأجيال السابقة رسالتها بأدواتهـا المتاحـة وفـى ظـل ظروفهـا، أمـا نحـن فقد تغيرت أدواتنا وظروفنا وتغيرت -كذلك- الرسـالة التـى يجـب أن نقـوم بهـا، لقـد تحـررت الأجيـال السـابقة مـن الاستعمار التقليـدى وعلينا نحن أن نتحرر من الاستعمار الجديد.

لقـد بـذل الاسـتعمار التقليـدى جهـودًا جبـارة لتحقيـق الضيـاع الحضارى الثقافى للشعوب المسـتعمرة، وكـان ذلـك يتـم بدمـج الشـعوب المستعمرة ثقافيـا فـى الثقافـة الغربيـة عـن طريـق الغـزو الثقـافى، ويـترتب علـى ذلـك تفتيـت القوميـة مـن خـلال الثقافـة، بالإضافـة إلى إضعـاف الشـعور باعتبـار الـذات وتعميـق الشـعور بحقارتهـا أمـام المسـتعمر، وتعميـق الشـعور بالحاجـة إلى الاستعمار الـذى يمثـل التقـدم والحضـارة والرخـاء، فالاسـتعمار هـو الـذى ينتشـل الشـعوب المتخلفـة مـن الظـلام ورحيلـه عنهـا هـو الـذى يردهـا إلى التوحـش والهمجيـة والحيوانيـة، إن الاسـتعمار هـو الـذى يحمـى هـذه الشـعوب الهمجيـة مـن بشـاعة تكوينهـا الفزيولوجـى والبيولوجى ومن الشقاء الوجودى.

وعندمـا يرحـل الاسـتعمار بـالفعل تاركـا خلفـه هـذه الأفكـار والمشـاعر يصبـح مـن الضـرورى علـى المثقـف الوطنـى أن يبحـث لوطنـه عـن ثقافـة وطنيـة تصحـح هـذه النظـرة وتكشـف نقيضهـا فـى التـاريخ الوطنـى القومـى قبـل الاستعمار، إن المثقـف فـى بحثه عن ثقافة

وطنيـة يعلـن الحـرب علـى الأكـاذيب الاسـتعمارية، وهـذه الحـرب ليست حربا إقليمية بل هى حرب على مستوى القارة كلها.

إن المثقـف -علـى حـد قـول "فـانون"- لايمكنـه أن يحـب التـاريخ الراهـن الـذى تحيـاه أمتـه، ولايمكنـه كذلـك أن يحب تـاريخ همجيـة شعبه الحاليـة، ولذلـك فهـو يبحـث عـن حضاراتـه القوميـة القديمـة جدًّا لكـى يستند إليهـا ويبحـث فيهـا عـن الأمـل فـى رد اعتبـار الـذات، وهـو يبحث عـن تلـك الحضـارة لكـى يستلهمها أسـس البنـاء الحضـارى الـذى يجـب أن يكـون فـى المسـتقبل، بيـد أن الاستعمار التقليـدى كمـا حـرص علـى تخريـب الـروح القوميـة وتفريـغ الثقافة القوميـة كـان قـد حـرص أيضـا علـى تشـويه التـاريخ والمـاضى وهدمهمـا وتجريدهما من كـل قيمـة يمكـن الاعتصـام بهـا، ولمـا كـان الاستعمار لم يفـرق فـى تحقيـق هدفـه هـذا بـين بلد وآخـر، فـإن مهمة المثقف تصبح الكشف عن الجذور الحضارية للقارة كلها من أجل ضرب الأكـاذيب الاستعمارية ورد اعتبـار الـذات واسـتلهام الحضـارة القوميـة لبنـاء الحضـارة القادمـة، لقـد صـور الاسـتعمار أفريقيـا علـى أنهـا قـارة يسـكنها الزنـوج الهمـج أهـل التوحـش والحيوانيـة والغرائزيـة فـى صورتهـا البهيميـة، وصـور الزنـوج كمـا لـو كـانوا يسـتحيل أن يدخـل الفهـم والمنطـق إلى عقولهم، وكمـا لـو كـانوا يسـتحيل عليهـم فهـم العلـوم وإنتاجهـا إذ إنهـم نشـأوا فـى بـلاد موبـوءة بالخرافـات والتعصـب، بـلاد مكتظـة بأكلـة لحـوم البشـر، هـؤلاء هـم الزنـوج، هـم سـكان أفريقيـا قبـل الاستعمار، أمـا أفريقيـا بعـد الاستعمار فقـد صورهـا المسـتعمر قـارة فتيـة بـدأت تعـرف طريقهـا إلى النـور والتحضـر بفضـل الحضـارة الغربيـة، وأن أفريقيـا طالمـا يقودهـا الغـرب فسـوف تخطـو إلى التقـدم والمدنيـة، أمـا إذا تخلـى الغـرب (الاسـتعمارى) عنهـا فإنها لابد أن ترتد إلى الهمجية والتوحش.

ومقـابل ذلـك كـان علـى المثقـف الأفريقـى أن يـرد اعتبـار ذاتـه واعتبـار قارتـه بالبحث عن حضاراتـه ومختلـف ثقافاتـه الأفريقيـة القوميـة، ولذلـك يقـول "فـانون": "مـن المنطق أن تتم هذه الجهـود على النطـاق الـذى يتناولـه الاسـتعمار نفسـه، فـالمثقف الأفريقـى الـذى وعـى الثقافـة الغربيـة وقـرر المنـاداة بوجـود حضـارة قوميـة، لـن يفعـل ذلـك باسـم أنجـولا أو داهومـى، بـل باسـم الحضـارة الأفريقيـة عامـة، إن الزنجـى الـذى لم ينقطـع عـن أن يكـون زنجيا منذ أن تسلط عليـه الأبيـض، حـين يقـرر أن يـبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة، لابد أن يدرك

أن التاريخ يفرض عليه أفقا معينا، ويدله على طريق معينة، وأن عليه أن يظهر حضارة زنجية.

ولاشك فى أن المسئولين عن إضفاء هذا الطابع العرقى على الفكر أو الخطوات التى خطاها الفكر إنما هم الأوروبيون، نعم هم سيظلون مسئولين لأنهم ظلوا ومازالوا يقابلون بين حضارة البيض واللا حضارات الأخرى، إن الاستعمار لم يضيع وقته فى إنكار حضارات الأمم الأفريقية فرادى، بل أنكرها كلها دفعة واحدة، ولذلك جاء الرد عليه من القارة بأسرها".

وكما يتباهى الغرب بحضارته أصبح الأفريقى الزنجى يتباهى بذاته ونضاله من أجل خصائصه الحضارية، ولقد عبر الأدب الأفريقى فى السنين العشرين الأخيرة عن ذلك، فهو -بذلك- ليس أدبا قوميا بل هو أدب زنجى ، ويمكننا القول أيضا إن العالم العربى كان له نفس رد الفعل على الاستعمار الذى وصمه ووصم تاريخه بالهمجية، فقد رأينا كفاح التحرير القومى مصحوبا بظاهرة ثقافية -متعددة الأبعاد- تشمل مايسمى باليقظة الإسلامية، ورأينا النضال الوطنى يتجه نحو القومية العربية والوحدة العربية ويرفع شعاراتها ويطالب بها، ورأينا الزعماء يتحدثون عن الحضارة الإسلامية وأيام مجدها الرائعة.

بيد أن فانون يأخذ على العرب كونهم "لايتوصلون دائما إلى التخلى عن النظرة الذاتية إزاء الواقع الموضوعى، ولذلك تراهم لايعيشون واقعا ثقافيا وطنيا بل عربيا، والمشكلة التى يطرحها المثقفون العرب أو الأفريقيون على أنفسهم لم تصبح بعد مشكلة إقامة ثقافة وطنية، لا ولامشكلة اللحاق بركب حركة الأمم، بل مشكلة تبنى ثقافة عربية أو أفريقية إزاء مايعمد إليه الاستعمار من إدانة شاملة واحتقار عام، فعلى هذا الأساس نرى سواء لدى العرب ولدى الأفريقيين، أن مطمح المثقف مطمح شامل، هو لدى المثقف الأفريقى يشمل القارة كلها، وهو لدى المثقف العربى يشمل الوطن العربى كله".

إن مافعله الاستعمار فى المجال الثقافى والحضارى كان بشعًا بكل المقاييس، وكان رد الفعل عليه من قبل القارة المستعمرة طبيعيا، لكن لاشك أيضا أن تحدث أفريقيا عن ثقافة

زنجية (عرقية) بدلا من الثقافة القومية سوف يؤدى بها إلى حرج لاتعرف كيف تخرج منه، لأن فكرة الانتماء إلى العرق الزنجى -كما يقول فانون- تصطدم أولاً بالوقائع التى تفسر تاريخية الناس، لقد تفتتت فكرة الثقافة الزنجية، فكرة الثقافة الأفريقية الزنجية، لأن مَن أرادوا أن يجسدوها أدركوا أن كل ثقافة إنما هى ثقافة قومية قبل كل شئ وأن المشكلات التى أيقظت "ريتشارد رايت" أو "لانجستون هوجز" تختلف اختلافا أساسيا عن المشكلات التى أيقظت "ليوبولد سنجو" أو "جومو كنياتا".

علينا إذن أن ننتبه إلى الالتباسات الخطيرة التى تطرحها المشكلة الثقافية فى البلدان المتخلفة، أول هذه الالتباسات هو أن هذا الحماس الشديد فى الظواهر الثقافية اللا قومية -بل القارية- هو نتيجة رد فعل عاطفى على مزاعم الاستعمار، كما أن إسباغ الطابع العرقى على هذه الظواهر الثقافية كان سببه العقل الأوروبى أولاً وممارساته الثقافية والاستعمارية، وإن هذا الطابع العرقى للثقافة الزنجية الأفريقية من شأنه أن يقطع صلة الثقافة بالواقع الراهن، ومن ثم تعتصم الثقافة ببؤرة عاطفية حماسية وتعجز -كما يقول فانون- عن أن تشق لنفسها طرقا محسوسة هى الطرق الوحيدة التى يمكنها مع ذلك أن تهيئ لها صفات الخصوصية والتجانس والقوة.

ومعنى ذلك أن التاريخ يحد من عمل المثقف، ولكن مع ذلك فإن عمل المثقف هو الذى يدعم عمل السياسيين ويظهر مشروعيته، إن المثقف عندما يبحث لنفسه ولوطنه عن ثقافة وطنية قومية يواجه بها الثقافة الاستعمارية إنما يبحث عن أصالته وعن كيانه المستقل الدال على وجوده، لكنه عندما يلجأ إلى واقعه الراهن يصاب بالرعب مما يراه من التخلف والهمجية، فيدرك أن عليه أن يفصد جسده لينزف حتى يتخلص من بذور العفن فى جذوره وجذور ماضيه وحاضره، إن عليه أن يتخلص من جزء من جسده ومن كيانه، هو الجزء المصاب ببذور العفن، ولذلك يبدأ هذا المثقف فى النقد الذاتى وفى إحصاء السيئ والحميد لدى شعبه الذى يعتبره مستودع كل حقيقة، ويبرز هذا الصراع فى كل إنتاج ثقافى أو إبداعى، وعلى هذا النحو يتطور المثقف ويتطور إنتاجه.

* * *

يقول "فانون" إذ نحن أردنا أن نعرف من خلال آثار الكتاب المستعمَرين المراحل المختلفة التى يقطعها هذا التطور، رأينا أمام أعيننا مشهدًا ذا ثلاثة أزمان، ففى مرحلة أولى: يبرهن المثقف المستعمَر على أنه تمثل وهضم ثقافة المحتل، فيدل إنتاجه على تأثره بالمحتل ويتوازى هذا الإنتاج مع مثيله الغربى خطوة خطوة، حتى ليمكن -بسهولة- أن تربط هذا الإنتاج بتيار معين من تيارات الأدب الغربى، وأثناء هذه المرحلة من التمثل الكامل نجد بين الأدباء المستعمرين: برناسيين، ورمزيين، وسرياليين، وفى مرحلة ثانية: يهتز المثقف المستعمَر ويقرر أن يتذكر نفسه، ولأن علاقة المثقف -هنا- بشعبه كانت علاقة خارجية فإنه لايزيد فى هذه المرحلة عن أن يتذكر، فيعود إلى الأساطير العتيقة ويحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة، على ضو فلسفة فى العالم وضعت تحت سماء غير هذه السماء، وهذا النوع من الأدب السابق على المعركة أحيانا مايكون أدب رمز وسخرية، إنها مرحلة تتسم بالقلق والغثيان، تجربة يعانى فيها الأديب الموت لكنه يضحك.

وفى المرحلة الثالثة والأخيرة، والمرحلة التى تسمى مرحلة المعركة، نرى المثقف بعد أن حاول أن يغرق فى الشعب، يعمد إلى عكس ذلك فهو الآن يحاول أن يهز الشعب، إنه الآن ينتج أدب المعركة، ينتج أدبا ثوريا قوميا، إنه يكتب الجملة التى تفصح عن الشعب وهنا يتحول الأديب إلى ناطق بلسان واقع جديد يتحقق.

* * *

هنا يدرك المثقف ماقاله "سيكوتورى" فى خطابه أمام المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود، أى أنه يدرك أن المرء لايبرهن على وجود أمته بثقافة، بل بخوض المعركة التى يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال.

* * *

وإلى جانب ذلك يجب أن يتذكر المثقف أنه يكتب أدبه لشعبه بتكنيك مستعار من الغرب، وربما بلغة الاستعمار، أى أنه يتعامل مع شعبه كما لو كان أجنبيا، وأنه عندما يحاول البحث عن مقومات الأصالة القومية يلجأ إلى الماضى مستلهما تراث الشعب،

واللجوء إلى الماضى لايعنى سوى اللجوء إلى ماتجاوزه الواقع الراهن، ذلك الواقع الذى يؤكد بالفعل أن الشعب قد تغير وقد تجاوز كل صنع الماضى وعاداته، فالإصرار على العودة للأصول لايعنى سوى التجمد، سوى معاكسة الواقع، ومعاكسة الشعب، ومعاكسة تيار التاريخ.

والدور الحقيقى الذى يجب على المثقف القيام به هو اللحاق بالشعب فى ركب حركته المعاصرة ونضاله الراهن، لا البحث عنه فى الماضى، إن الشعب لايموت ولايتجمد فى الماضى، إنه دائما يمضى فى نضاله إلى الأمام، وعلى المثقف المبدع أن ينخرط فى تلك الحركة مع الشعب، وأن يخوض معركة الشعب، وأن يجدد وأن يبتكر ويبدع فى ضوء مايلهمه النضال الشعبى.

دور المثقف الوطنى هو أن يخوض مع شعبه معركته المقدسة من أجل التحرر الوطنى، ويكتمل الدور النضالى للمثقف بمشاركته فى إبداع وتأصيل الثقافة الوطنية القومية، لأن الثقافة الوطنية ليست فقط تعيد بناء ما خربه الاستعمار، إنما هى أيضا تقود الواقع نحو المستقبل الذى يكافح الشعب من أجله، وكلما اكتملت ملامح الثقافة الوطنية وسرت إلى الشعب، أسرعت خطى الشعب نحو الفجر الجديد.

* * *

* الفجر الأفريقـــــى

كتب الشاعر الأفريقى "كيتا فوديا" الكثير من الروائع الشعرية، لكن أروع ماكتبه "كيتا فوديا" كان تلك القصيدة التى تصور دور الأفريقى ومهمته التى يجب عليه القيام بها، وهى قصيدة تحكى قصة "نعمان" الذى كان بطل ساحات معركة أوروبا، نعمان الذى كفل القوة والاستمرار للعاصمة التى تستعمر بلاده، نعمان الذى احترقت قلبه رصاصة من رصاصات الشرطة فى اللحظة التى يرجع فيها إلى أرض آبائه وأجداده، نعمان هذا هو، كل أولئك الزنوج الذين قاتلوا دفاعا عن حرية فرنسا أو عن حضارة بريطانيا.

ولكن للقصيد أيضا هدفا أبعد من ذلك هو أن الاستعمار بعد أن يستخدم أهل البلاد المستعمَرة فى القتال، يستعملهم كمحاربين قدماء فى تحطيم حركات الاستقلال، وفى محاربة الحركة القومية، إن الشاعر "كيتا فوديا" يدرك ذلك، ويكتب واصفا الماضى وأحداثه، لكنه يدرك أيضا أن عليه أن يفعل ذلك لأجل أن يفتح أبواب المستقبل، وأن يعزز الأمل، ولكنه يدرك أيضا أنه لايمكن تعزيز هذا الأمل دون أن يشارك هو نفسه فى العمل وفى الانخراط فى المعركة القومية جسما وروحا، إنه يقول: إن بإمكانك الحديث عن أى شئ، لكن متى تكلمت عن فتح الأفق، فتح أبواب المسقبل، عن إدخال النور إلى بلادك، عن وقوفك فى صفوف شعبك، فقد وجب عليك أن تشارك فى المعركة بعضلاتك.

إن مسئولية المثقف فى البلاد المستعمرة ليست فحسب مسئولية عن الثقافة القومية، إنما هى مسئولية كلية شاملة عن الأمة بأسرها التى ليست الثقافة إلا جانبا من جوانبها، ولاينبغى للمثقف فى البلدان المستعمرة أن يهتم باختيار القطاع أو المستوى الذى يخوض فيه المعركة، وفى هذا الصدد يقول "فانون": إن الكفاح فى سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح فى سبيل الحرية القومية، الرحم الذى يكون فيه نشوء الثقافة ممكنا، ليس هناك معركة ثقافية تقوم على موازاة المعركة الشعبية، إن أولئك الرجال والنساء الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بقبضات أيديهم العزل إنما يقاتلون جميعا فى سبيل الثقافة القومية الجزائرية، إن الثقافة القومية الجزائرية تنشأ هناك أثناء المعارك، فى السجن، أمام المقصلة، فى المراكز العسكرية الفرنسية التى تطوّق وتهدّم.

ليس يكفى أن نغوص فى ماضى الشعب لكى نتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف والاحتقار التى يقوم بها الاستعمار، وإنما يجب علينا أن نناضل مع الشعب من أجل أن نوضح المستقبل، من أجل أن نعد الأرض التى أخذت تتفتح منذ الآن فيها البراعم، ليست الثقافة القومية ذلك الفولكلور الذى حسب نظرة من ينظرون إليه -نظرة مجردة- يكتشفون حقيقة الشعب، ليست الثقافة القومية تلك الكتلة المتجمدة من الحركات الصرفة التى ارتباطها بالواقع الراهن يضعف شيئا فشيئا، إنما الثقافة القومية مجموعة من الجهود التى يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من أجل أن يصف وأن يبرر وأن يغنى النضال الذى به يتكون الشعب ويبقى، ولذلك كله يجب على الثقافة القومية فى البلاد المتخلفة أن تضع نفسها فى قالب من كفاح التحرر، وينبغى على رجال الثقافة الأفريقية الذين يعملون باسم "الثقافة الزنجية" وباسم وحدة هذه الثقافة أن يدركوا أن نشاطهم أصبح لايزيد عن المقارنة بين جثث أو المضاهاة بين توابيت.

إن المصير المشترك ليس هو مصير الثقافات القومية، إنما هو المصير بين الأمم التى يسيطر عليها استعمار واحد، وطرح المشكلات على أسس متقاربة مثل المشكلات النقابية، ومشكلة التحرير قد يؤدى إلى التشابه بين الثقافات القومية، ولكنه أبدًا لايؤدى إلى التماثل التام بين تلك الثقافات، لأن إيقاع مسير الشعب وإيقاع مسير القادة فى كل بلد على حدة ليس إيقاعًا واحدًا.

ونحن نؤكد -بدورنا- مع "فانون" أنه لايمكن أن يكون هناك ثقافات متماثلة تماثلاً دقيقا، وإنك إذ تخيلت أنك صانع ثقافة زنجية، فقد نسيت أن التمييز الذى يميز الزنوج عن غيرهم هو فكرة آخذة بالزوال لأن الذين أوجدوها يشهدون الآن انحلالا عاما يعترى تفوقهم الاقتصادى والثقافى.

إن إحدى مهام الثقافة الوطنية هى فضح أساليب التضليل التى تصرف الشعوب عن الكفاح، ولذلك علينا أن نفضح -هنا- فكرة الثقافة الزنجية "العرقية"، لأن مشكلة الثقافة فى أفريقيا ليست مشكلة زنوجة الثقافة، وإنما هى مشكلة التحرير والخلق الوطنى، المشكلة كما يصفها فانون هى: أن نعرف المكانة التى نريدها لشعوبنا، ونوع العلاقات

الاجتماعية التى نريدها، وهى أن نشكل مفهومنا عن المستقبل الإنسانى بالشكل الذى يضمن تحقيق هذا المستقبل الأفضل، هذا هو المهم، وكل ماهو عداه فهو كلام مزوق وتضليل.

إن الثقافة الوطنية -كما قلنا- تشتد وتقوى فى قلب كفاح الشعوب وحول هذا الكفاح لاحول الأغانى أو القصائد أو الفولكلور، وإذن فالمناداة بالثقافة الزنجية أو وحدة الثقافة الأفريقية يجب أن يمر بدعم كفاح الشعوب دعما غير مشروط، وبتعبير "فانون: نفسه: ليس يريد ازدهار الثقافة الأفريقية وإشعاعها من لايسهم إسهاما محسوسا فى توفير الظروف التى يتحقق فيها الازدهار والإشعاع، وهى الظروف التى تسمح بتحرير القارة.

وعليه يمكننا أن نؤكد بكل ثقة أنه مامن خطاب ولانداء حول الثقافة ينبغى أن يصرفنا عن مهماتنا الأساسية التى هى تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه فى كل لحظة ضد الأشكال الجديدة التى يتخذها لنفسه الاستعمار الجديد، على ألا يفتر عزمنا وإصرارنا العنيد على أن لانفتن أو نضلل، ويجب أن يكون كل ذلك معلومًا لنا لكى نتمكن من خلق ثقافتنا الوطنية فى قلب نضال شعوبنا من أجل التحرير الذى هو أول الخطوات الحاسمة على الطريق الطويل صوب الفجر الأفريقى.

* * *

* الثقافة الوطنية والتحرر

"أسس مشتركة"

إن حاجة الشعوب المستعمرة إلى الثقافة الوطنية حاجة نابعة من كون الاستعمار قد هدم الوجود الثقافى لهذه الشعوب، أى أنه قد هدم عمادًا من أهم أعمدة الكيان القومى، وقد تحقق للاستعمار هذا الهدف من خلال إنكاره للواقع القومى وإقامته لعلاقات حقوقية جديدة ونبذه للسكان الأصليين وعادتهم وتجريد الأهالى من أملاكهم وتعميق الاستعباد تعميقا منظما.

فكل هذا يؤدى بالطبع إلى تحقيق الهدف الاستعمارى وهو محو العماد الثقافى كخطوة لهدم الكيان القومى تدريجيا، وهنا تبرز أهمية الثقافة الوطنية فى كفاح التحرر، كما تبرز الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرر، ونحن نعلم أن الاستعمار يتمادى فى تخططاته بحيث لايكتفى بإلغاء الوجود الموضوعى للأمة وللثقافة المضطهدتين بل أن يبذل أقصى الجهد لحمل الأمة المستعمرة على الاعتراف بتخلف ثقافتها وعلى الاعتراف بأن تكوينها البيولوجى نفسه غير منظم وغير مكتمل، ومن شأن هذا السلوك الاستعمارى أن يدفع المثقف فى البلاد الواقعة تحت نير الاستعمار إلى الدفاع عن النفس وعن الذات الثقافية القومية، وبهذا ينتقل مجال الحركة الثقافية من الحيوية إلى التجمد، ومن الإبداع إلى الدفاع عن النفس، وتحيط الثقافة القومية نفسها بسياجات تحقق لها هدفها الدفاعى فتظل متجمدة داخل تلك السياجات التى تتمسك بها.

ومع ذلك لايقنع الاستعمار بتحقيق هذا الهدف، بل إنه عندما يضرب الثقافة القومية يقدم الثقافة الغربية الاستعمارية بدلا منها للأمة المستعمرة، ويتهافت المثقف غير الناضج على الثقافة الغربية، بينما ترتد الجماهير إلى السياجات الدفاعية للثقافة وتتمسك بجذورها وتقاليدها التى تجاوزها الواقع الراهن، وبعبارة أخرى ينتكس الشعب ثقافيا بالارتداد إلى الماضى والاعتصام بالتراث القديم، بينما يغترب المثقف عن واقعه وثقافته الوطنية بالتهافت على الثقافة الغربية والتأثر بها، أما إذا كان المثقف ناضجا فإنه يتمثل الثقافة الغربية دون الانفصال التام عن ثقافته القومية.

وقد يقع المثقف نتيجة للمأزق الذى وضعه فيه المستعمر فى تناقضات غير محتملة، وكما يقول "فانون": سواء أهرب المثقف من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها بحماس عقيم، يظل عاجزًا عن إحداث أى تغيير أو حتى تأثير، لأنه لم يحلل الوضع الاستعمارى تحليلاً صحيحا دقيقا، لأن الوضع الاستعمارى ذاته يجمل كل شئ فلا يمكن أن تكون هناك حياة ثقافية قومية أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية مادامت السيطرة الاستعمارية قائمة، وقد تقوم بعض المحاولات الجريئة لاستئناف الحيوية الثقافية وإعادة توجيه الموضوعات والأشكال وليس ثمة أثر محسوس مباشر لهذه المحاولات ولكنها على المدى البعيد تهيئ لنزع الغشاوة عن وعى الشعب وللتنديد بالاضطهاد ولفتح باب الكفاح التحررى، وبالطبع فإن هذه المحاولات تقابل بالقمع الاستعمارى مما يدفع الثقافة الوطنية إلى التخفى، أى إلى العمل السرى، وبمرور الوقت يزداد جمود وتيبس الثقافة الوطنية، فإذا هى -كما يقول فانون- مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس، والنظم المجزأة المفتتة، فليس فيها حركة أو إبداع حتى ولافوران، إن إفقار الشعب واضطهاد الأمة ومنع الثقافة شئ واحد، إننا لانرى بعد قرن من السيطرة الاستعمارية إلا ثقافة متيبسة متحجرة، إن بين نضوب الواقع القومى واحتضار الثقافة علاقات ارتباط متبادل فكيف تتطور هذه العلاقات أثناء كفاح التحرير؟ إن الممارسات الاستعمارية بشتى ألوانها تولد لدى الأمة المستعمرة سلوكا هجوميا، ولكن هذا السلوك الهجومى هو من نوع المنعكسات الغريزية التى تتصف باللاتمييز وبالفوضوية وليس فيه جدوى، ويستمر الاستغلال الاستعمارى كما يستمر بؤس الشعب وجوعه، ويضطر المستعمر إلى خوض كفاح صارم منظم، ويشعر أكثرية الشعب أنه لابد من معركة حاسمة، وتأتى الأحداث الدولية وانهيارات الإمبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة فى قلب النظام الاستعمارى، يأتى كل ذلك فيغذى روح القتال ويرقى بالوعى الشعبى ويقويه.

وبالطبع ينعكس كل ذلك على الإنتاج الثقافى، وفى اللحظة التى يتحرر فيها المثقف من أسر الثقافة الغربية الاستعمارية والتى يقف فيها من ثقافته موقفا موضوعيا، فى هذه اللحظة -كما يقول فانون- يمكننا أن نتحدث عن الثقافة القومية وعن الأدب القومى.

وعندئذ فقط ينتج الأديب أدبا قوميا، أدب كفاح بالمعنى الأصلى للكلمة لأنه أدب يقود شعبا بكامله إلى الكفاح والنضال فى سبيل الوجود القومى، وفى هذا الإطار ترى القصة والرواية، الملاحم والأغانى الشعبية تأخذ فى التجديد والابتكار بعد أن كانت تستمد موضوعاتها من المخزون القديم المجمد، لقد أصبح الأدب معتمدا على الواقع بعد أن كان معتمدا على الماضى، ولقد انزوى أبطال الماضى بعد أن ظهر أبطال الحاضر فى الأدب القومى.

ويضرب فانون بالجزائر المثل فى هذا الصدد فيقول :

إن الرواة قد أخذوا منذ ١٩٥٢-١٩٥٣ يقلبون طرائقهم فى قص حكاياتهم، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأسا على عقب بعد أن كانت أقاصيصهم قبل ذلك بجمدة مملة، وعادت الملحمة إلى الظهور هذا انبثاق ثقافى، ولم يغفل الاستعمار عن ذلك، فإذا هو يعمد منذ عام ١٩٥٥ إلى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس.

إن اتصال الشعب بالحركة الجديدة يوقظ الهمم فى ضمير الشعب، وينظم إيقاع الحماس الجماهيرى، وتدفع هذه الحركة الشعب وتبعثه وتهيب به وتناديه وتقوده وتوجهه، ومن جهة أخرى تنعكس صلة الجماهير بالحركة الجديدة فى عدة مستويات، منها مايتصل بالتطوير الفنى فى الشكل والمضمون، ومنها مايتصل بدفع الأشكال القديمة المترسبة إلى التحديد والتطوير والإبداع والمشاركة فى الحركة الجديدة، إن الجماهير -هنا- تعمل على تحرير المدارس التقليدية من أسر الجمود، فإذا هى تنطلق إلى الإبداع والتجديد والانخراط فى التعبير عن الكفاح القومى، وربما لايلحظ أحد كل هذا التجديد فى الحياة الثقافية ولكن أغلب القطاعات التى تشارك فى هذه الحركة تسهم فى الكفاح الوطنى إسهاما عظيمًا.

هناك علاقة ارتباطية واضحة بين الجماهير والحركة الثقافية القومية، وهذه العلاقة ينعكس أثرها -كما قلنا- سواء على الحركة الجماهيرية أو الحركة الثقافية بكل مستوياتها وقطاعاتها، فليس ثمة قطاع أو مجال من قطاعات الثقافة والإبداع لايمتد إليه أثر الحركة الجماهيرية وكفاحها، لأن كفاح الجماهير هو الموجه الأول للثقافة الوطنية .

* * *

يقول "فانون" مؤكدًا: إذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعى القومى -حتى فى مجال القيشانى والفخّار- كان فى وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها، إن المبدعات فى هذا المجال تهجر أشكالها القديمة: الجرار والخوابى والأطباق، وتتبدل بشكل تدريجى أول الأمر، ثم بشكل قومى جارف بعد ذلك، والتلوينات التى كانت أول الأمر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية فى الانسجام تتكاثر وتتراجع فيها الاندفاعية والثورية، وقد كانت هناك بعض ألوان تكاد تكون محرمة فى استخدامات معينة، لكنها الآن تفرض ذاتها دون أن تقابل بالاستهجان، كما أن هناك سمة هى "اللاتعبيرية" كان علماء الاجتماع يعتبرونها من أهم سمات المناطق المغلقة تماما، ولكن هذه السمة بدأت تخف وطأتها تدريجيا.

والمستعمر لايقف ساكنا -أيضا- إزاء هذه الموجات التجديدية لأنه يدرك معناها ودوافعها وأهدافها، ولذلك نراه يهاجمها من خلال أهل الاختصاص الذين يناورون فى مهاجمتهم لكل تجديد بالدفاع عن التقاليد الفنية المحلية القديمة، يحدث هذا فى جميع الميادين الفنية، فنرى الاستعمار يدافع عن تقاليدنا الفنية القديمة ليواجه كل جديد مبتكر تشتم منه رائحة الثقافة الوطنية أو يشى بالروح القومية.

ويضرب "فانون" مثلاً على ذلك بموقف الاستعمار من موسيقى الجاز بعد الحرب العالمية الثانية، فالجاز ليس إلا الحنين المنكسر اليائس الذى يشعر به الزنجى المحاط باللعنة والاحتقار والحقد العرقى الذى يحمله له البيض، فإذا أدرك نفسه إدراكا جديدًا وأدرك العالم من حوله إدراكا جديدًا مختلفا فانبعث الأمل فى نفسه وفرض على العالم العرقى التراجع، فلابد أن يميل بوقه إلى الانطلاق ولابد أن يجنح صوته إلى التحرر من بحّته، إن الأساليب الجديدة فى الجاز لم تنشأ من التنافس الاقتصادى فحسب، بل هى ولاشك نتيجة من نتائج انهزام العالم الجنوبى فى الولايات المتحدة انهزاما لامناص منه وإن يكن بطيئا، وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عاما عن نوع "الجاز الصارخ" الذى يتقيؤه زنجى مسكين ملعون لحرصهم على صورة مجمدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية.

وما يقال عن الأدب والخزف والموسيقى يقاله أيضا عن الرقص والغناء الميلودى والطقوس والاحتفالات التقليدية، إذ إننا نجد الانطلاقة نفسها ونكتشف نفس الطفرات، ونتيجة لذلك كله يشعر المرء قبل مرحلة كفاح التحرير السياسية أو المسلحة بظهور القوة الجديدة، ويترقب المعركة المقبلة التى تنبئ بمقدمها تلك الانطلاقة غير المعهودة فى تناول موضوعات جديدة وفى تغيير أساليب التعبير وفى تزايد مقدرة الفن على التحريض وتعبئة الصفوف.

إن هذه الانطلاقة بما تتضمنه من مقدرة تسهم -بلاشك- فى إيقاظ حساسية الإنسان الواقع تحت نير الاستعمار، وهذه اليقظة تجعل من التأمل ومن مشاعر اليأس والإخفاق شيئا مضى زمانه لأيقبل، لأن الإنسان المستعمَر كما يقول فانون: عندما يجدد أغراض وحركة الحرفة والرقص والموسيقى والأدب وحكايات البطولة إنما يعيد بناء إدراكه للعالم، فيفقد العالم فى نظره طابع اللعنة وتتجمع عندئذ الشروط اللازمة لخوض المعركة التى لابد من خوضها.

* * *

وهكذا تتواتر وتترابط التجليات الثقافية ويرتبط التجديد فيها بنضج الوعى القومى، ولكن هذه التجليات والتطورات والتجديدات المتحركة إنما تتحرك فى اتجاه يهدف إلى إيجاد واقع موضوعى، أى أنه يهدف إلى التحول إلى مؤسسة قائمة، وهو لن يتحول ولن يحقق هذا الهدف إلا إذا تحقق له هدف آخر يجب تحقيقه قبل أى شئ، وهذا الهدف هو أن يتحقق للأمة الوجود القومى المتحرر.

ولذلك فإن كافة الجهود المبذولة لرد الاعتبار والقيمة إلى الثقافة الوطنية أو التمسك بالاكتفاء بمجرد بناء الثقافة الوطنية دون السعى إلى تحقيق التحرر من الاستعمار لابد أن يؤدى -حتما- إلى ضياع كل الجهود المبذولة، وإلى تمسكنا بخطأ موقفنا الذى يبعدنا عن النضال ويحقق هدف الاستعمار، إذ إن التحرر من السيطرة الاستعمارية هو هدف الأمة، وهو هدف الثقافة الوطنية، وهدف كل الجهود التى تبذلها كافة القوى الشعبية فإذا لم يتحقق هذا الهدف ضاعت كل تلك الجهود سدى وأصبح الحديث عن الثقافة الوطنية

حديثا كاذبا لامعنى ولاهدف له، ثم إنه يجب أن تتذكر دائما إن التحرير القومى وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة الوطنية القومية الحية.

وجود الأمة -إذن- شرط لازم لوجود الثقافة، وكفاح الأمة -كما قلنا- هو الذى يحرر الثقافة ويدفعها إلى الإبداع والتجديد ويوفر لها إطار تعبيرها وظروف نموها، ولهذا يقول "فانون" : إن كون الثقافة قومية فهو الذى يجعلها قادرة على التأثر والتأثير فى الثقافات الأخرى.

وهناك إذن علاقة ارتباطية بين الثقافة الوطنية وبين كفاح التحرير، بل إن كفاح التحرير يعمل على دفع الثقافة وبلورة أهدافها وإطارها -كما قلنا- بحيث يمكن القول إن الثقافة هى أكمل المظاهر المعدة عن كفاح الشعوب والعلاقة الجدلية بين كفاح التحرير والثقافة هى التى تعمل على تجديد الثقافة وتطويرها لا ردها إلى أطرها القديمة، لأن هدف الكفاح هو تنظيم العلاقات بين البشر، ولابد لذلك من تبديل لأشكال ومضامين الثقافة الشعبية، ولهذا يقول "فانون" إن التحرر بالكفاح لايزيل الاستعمار فحسب، بل يزيل المستعمر أيضا فهذه الإنسانية الجديدة لذاتها وللآخرين لايمكنها إلا أن تنشئ نظرة إنسانية جديدة، بل إن هذه النظرة الإنسانية الجديدة قائمة مقدما فى أهداف ومناهج الكفاح الذى يعبئ جميع طاقات الشعب للمعركة وهى معركة، ظافرة تحقق الحد الأدنى من الشروط اللازمة لنمو الثقافة والإبداع.

* * *

مسئولية المثقف إذن هى بناء الأمة وقيادتها إلى النضال الذى يحقق هذا البناء، أولا بالتحرر من السيطرة الاستعمارية، ثم ببعث الدولة القومية، فإذا قام المثقف بهذا الدور فإن النضال الجماهيرى المنظم القائم على الوعى هو الذى يحقق التحرير، وهو الذى يحمى الدولة بعد قيامها ويحمى الثقافة الوطنية ويدفعها إلى التطور والإبداع.

* * *



الاستعمار والاضطرابات النفسية

* الحرب النفسية

كان على الاستعمار لكى يرسخ وجوده فى البلاد المستعمرة أن يخرب كل شئ، فإذا كان هدف الاستعمار هو جعل البلاد المتخلفة مستعمرات له على أن تظل هذه البلاد مستعمرة حتى بعد تخلصها من الاستعمار التقليدى، فإن ذلك يتحتم عليه توسيع دائرة الاستعمار والتخريب لتشمل النفس والعقل بعد احتلال الأرض واستنزاف مواردها، فيجب قطع الطريق على أصحابها لمنعهم من التمسك بها أو التمسك بأى أمل فى الوجود المستقل عن الاستعمار.

ويبدأ الاستعمار تحقيق هذا بتشويه الذات القومية وتشويه التاريخ واختراق الثقافة القومية وإفساد نمط الإنتاج، ثم إعادة دمجة فى المنظومة الغربية بتحويل الاقتصاد إلى اقتصاد استعمارى، ويعزز كل ذلك عمليات القمع والإرهاب واستعراض القوة والتعذيب.

ولايقتصر الأمر على استخدام هذه الأساليب بل يتجاوزها إلى حد استخدام أساليب الحرب النفسية، وهى الحرب التى يستخدم فيها الاستعمار خبراء النفس والاجتماع لتحقيق أهداف الخطة الاستعمارية القائمة على دراسة نفسية واجتماعية متكاملة للبلاد المستعمرة.

وإذا كانت كافة آثار الاستعمار الوحشية والتخريبية يمكن علاجها وإصلاحها بسهولة من خلال إعادة البناء القومى الوطنى، فإن آثار التخريب النفسى التى يلحقها الاستعمار بإنسان الشعوب المستعمرة من الآثار التى يصعب التخلص منها فى زمن قصير، إن الاستعمار يعلم أن الإنسان هو الذى يبنى بعد التخريب، فإذا كان الإنسان نفسه مُخَرَّبًا نفسيا لايصلح للبناء ومن ثم يعتمد على الاستعمار الجديد فى بناء مجتمعه وفى إصلاح آثار الاستعمار التقليدى.

وبهذا المعنى تكون الحرب النفسية هى الضمانة الوحيدة لبقاء الاستعمار حتى بعد زواله وتصبح الحرب النفسية أمضى أسلحة الاستعمار لأن الشعوب تستطيع بكفاحها مواجهة الاستعمار العسكرى والتخلص منه، ولكنها تحتاج إلى زمن طويل لكى تشفى جراحها النفسية بعد زوال الاستعمار التقليدى.

ولقد أدرك فانون أهمية الأسلوب الاستعمارى النفسى ومدى آثاره فخصص فصلاً لمعالجة آثار هذا التخريب النفسى، وتقصى فى هذا الفصل عن كل مايتصل بالأمراض العصبية والنفسية والعقلية والاضطرابات السلوكية الناشئة عن استخدام الاستعمار للأساليب السيكلوجية خاصة فى "التعذيب".

يقول "فانون" متأسفًا: اليوم أصبحت حرب التحرير التى يخوضها الشعب الجزائرى منذ سبع سنين لأنها حرب كلية لدى الشعب، أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الأمراض العقلية، وفانون لايبالغ فيما كتبه أو ذكره من الوقائع أو الحالات المرضية التى نقلها نقلاً مباشرًا عن الواقع الجزائرى أثناء حرب التحرير، لأن الاستعمار كما يقول "فانون": من حيث هو نفى منظم للآخر، ومن حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر، يحمل الشعب المستعمر على التساؤل الدائم: "من أنا فى الواقع؟"، وبالطبع فإن المواقف الدفاعية الناشئة عن هذه المواجهة العنيفة بين المستعمر والنظام الاستعمارى تنتظم فى بنيان يكشف -عندئذ- عن شخصية الإنسان المستعمر، وهذا كل مافعله فانون عندما استقصى الحالات المرضية وأنواعها فى الجزائر إبان الاستعمار الفرنسى، لقد وجد "فانون" عدة أنواع من الأمراض النفسية والعقلية الناشئة بسبب الظروف الاستعمارية، ولكنه من الغريب -أيضا- أن يجد أن الآثار النفسية المرتبطة بالظروف الاستعمارية لاتؤثر فحسب على الإنسان الواقع تحت وطأة الاستعمار وإنما تؤثر أيضا على المستعمر نفسه.

كما لاحظ فانون أن الطب العقلى العيادى، يصف مختلف الاضطرابات التى لوحظت فى مرضى الجزائر إبان الحرب التحريرية وبعدها فى باب "أمراض الذهان الاستجابى" وهنا يقول "فانون": على هذا الأساس ننظر بعين الاعتبار خاصة إلى الحادث الذى أطلق المرض، وإن كنا نشير هنا إلى دور التربية المؤهبة للمرض "التاريخ النفسى والعاطفى والجسمى للمريض" وإلى دور البيئة، ويبدو لنا أن الحادث الذى أطلق المرض فى الحالات التى استعرضناها -فى الدرجة الأولى- هو الجو "الاستعمارى الدامى" الذى لايرحم، وهو تلك الأعمال الاستعمارية التى لاتعرف الروح الإنسانية.

ويمكن تصنيف الأمراض التى عرضها "فانون -في هذا الفصل- على النحو التالى:

أ - حالات الذهان الاستجابى : وهى حالات تتخذ عدة أشكال فى السلوك غير السوى منها العجز الجنسى، وتفكك الشخصية، والاندفاع إلى القتل غير المميز، والهبوط النفسى، وتعذيب النفس والأقارب.

ب- وهى أيضا حالات تتخذ عدة أشكال من السلوك غير السوى لدى أعمار صغيرة وشابة منها: القتل، والهذيان، والاضطرابات النفسية الناتجة عن التعذيب، وفقدان القدرة على تناول الطعام، وفقدان الاستقرار الحركى، وفقدان العاطفة، وفقدان الإرادة، وفقدان الاهتمام، والذعر من الكهرباء، والكف، والتجمد الكلامى، والخوف المرضى، والعجز عن تفسير وضع معين.

ج - الاضطرابات النفسية الجسمية: تشتمل على الأمراض النفسية ذات المظاهر الجسمية التى منها قرحات المعدة، أوجاع الحالبين، الارتعاشات، الشيب المبكر، التسارع المفاجئ فى خفقات القلب، التصلب العضلى، التقبض العام، ولقد دلت الدراسة على أن هذه الأمراض التى دلت عليها الحالات طبقا لسجلات الوقائع المرضية تنشأ فى الجو الاستعمارى وبسبب الممارسات الاستعمارية، ولكن الاستعمار -من جهة- يحاول التنصل من مسئوليته، ويحاول إخفاء معالم جريمته بأن يصف الشعب الجزائرى بالإجرام وبالطبيعة السيئة ذات القابلية المرتفعة للمرض، أى أن الاستعمار يستخدم علم النفس فى تلفيق نظرية سيكلوجية خاصة عن الخصائص العامة للشخصية الجزائرية، وتستند هذه النظرية إلى وقائع ملفقة استمدت ظواهرها من حوادث يعلمها الأطباء والقضاة ورجال الشرطة والصحفيون، وهؤلاء جميعا قد أجمعوا قبل عام ١٩٥٤ على أن استعداد المواطن الجزائرى للجريمة يعتبر مشكلة من أهم المشاكل، حتى لقد قالوا إن الجزائرى مفطور على الجريمة، وأنشأوا لهذا نظرية، وجاءوا ببراهين علمية، ويقول "فانون" إن هذه النظرية ظلت تدرس لمدة عشرين عاما فى الجامعات، وتعلم هذه النظرية شبان جزائريان من طلاب الطب، فإذا بالصفوة تألف هذه الآفات الطبيعية فى الشعب الجزائرى وتتصوره كسولاً وكذابا ولصا ومجرما وينظر غالبا إلى تلك الصفات باعتبارها صفات شعبية طبيعية أو صفات بالفطرة.

هـذه النظريـة الرسميـة الاسـتعمارية تـرى أن الجزائـرى يقتـل كثـيرًا وأن نسـبة الجرائـم -لذلـك- فـى الجزائـر مـن أعلـى النسـب فـى العـالم، والجزائـرى حـين يقتـل فإنـه يمـارس القتـل بوحشـية والسـلاح المفضـل لديـه هـو السـكين، ويسـتنتج مـن ذلـك أن لـدى الجزائـرى شـهوة عظيمـة لرؤيـة الـدم، بـل يمكـن أيضـا العثـور علـى جـذور العلاقـة بـين القتـل والرغبـة فـى الاستحمام فى الدم وبين روح الإسلام.

وأكـثر مـن ذلـك فـإن الجزائـرى يقتل لأجل أمور تافهة، فالقتل عنده أسهل الأمور، وهو يقتـل لمجـرد كلمـة تبعـث فـى نفسـه الغضـب، وهو سريع الغضب جدًّا وحتى اللصوص الذين يسرقون فإنهم لايكتفون بالسرقة، إنما يتممونها بالقتل.

وهـذه النظريـة التـى وضعهـا الاسـتعمار خصيصـا مـن أجـل شـعب الجزائـر أصبحـت شـيئا فشيئا تعمـم علـى سـائر شـعوب شمـال أفريقيـا، وقـد وظـف الاسـتعمار جهـود عدد كبير جدًّا مـن العلمـاء لإتمـام هـذه النظريـة وتعليلهـا سوسـيولوجيا ووظيفيـا وتشـريحيا، والنتيجـة هـى تصـور سـكان شمـال أفريقـا كمـا لـو كـانوا مفطورين علـى الإجـرام والتوحـش والبدائيـة والعدوانية والغرائزية الحيوانية والتصرف والتعصب والعنف والاندفاع والفوضوية.

وبهـذه النظريـة الاسـتعمارية يـبرر الاسـتعمار ممارسـاته الاسـتعمارية ضـد الشـعوب المسـتعمرة ويخفـى لآثـار جرائمـه التـى تـترك بصماتهـا واضحـة علـى النفـس والعقـل والشـخصية، ونحـن إذا تناولنـا أنـواع التعذيـب التـى تلجـأ إليهـا السـلطات الاسـتعمارية وتتبعنـا مايـترتب عليهـا مـن تخريـب للشـخصية لأدركنـا مـدى، بشـاعة الجرائـم الاسـتعمارية فـى حـق الشعوب المستعمرة.

يؤكـد "فـانون" أن كـل طريقـة مـن طـرق التعذيـب تفضـى إلى نماذج مرضيـة خاصـة بغـض النظـر عـن كـون إصابـة الشـخصية عميقـة أو غـير عميقـة، والتعذيـب عمومـا ينقسـم إلى قسـمين، يسـمى الأول: التعذيـب الوقـائى، ويهـدف إلى إجبـار المعتقـل علـى الكـلام ويتـم ذلـك بتجـاوز الحـد الـذى يصبـح الألم بعـده لايطـاق، ولذلـك يضمـن هـذا النـوع مـن التعذيـب عـدة طـرق وحشـية، ولكنهـا بـالرغم مـن وحشـيتها أقـل بشـاعة عـن الطـرق المتبعـة فـى التعذيـب التام، وتتضمن طرق التعذيب الوقائى الطرق الآتية:

أولا- الاستقبال : ويكون عن طريق عدد كبير من رجال الشرطة يضربون السجين فى آن واحد، ويطوقه أربعة منهم ويأخذون يتراشقونه بالضرب، بينما يحرق أحدهم صدره بسيجارة ويضرب آخر قدمه بعصا.

ثانيا- يستمر التعذيب بعد ذلك بشكل تصاعدى تدريجى، فيحقن السجين بماء عن طريق الفم، ويغسل جوفه بماء قوى الضغط مخلوط بالصابون، ويتصاعد التعذيب فى هذه المرحلة إلى درجة إدخال زجاجة فى الشرج.

ثالثا- يستمر التعذيب بأسلوب التذنيب فى الوضع الساكن.

رابعا- يتصاعد التعذيب ليصل إلى استخدام الكهرباء، ويستمر فى التصاعد ليصل إلى استخدام مصل الحقيقية "البانتوتال" مع التعذيب التقليدى.

خامسا- يتبع أسلوب غسل الدماغ كمكافأة على التعاون مع إيقاف التعذيب تدريجيا وتدرك السلطات أن السجين قد مثل دور المتعاون بغية تخفيف التعذيب عنه وهو يظن أنه سيكون قويا أمام غسل الدماغ ولكن الاستمرار فى استخدام أسلوب غسل الدماغ وتمثيل دور المتعاون مع الاستعمار يؤدى إلى الكثير من الأمراض النفسية والأضرار التى تلحق بالشخصية. . .

وكما قلنا فإن الممارسات الاستعمارية الوحشية لاتؤدى إلى المرض النفسى والعقلى فحسب للمستعمر بل إنها كذلك تصيب رجال الاستعمار وأسرهم، فأحد الذين يقومون باستجواب السجناء من رجال الشرطة الاستعمارية قد وصلت حالته النفسية عن الاضطراب إلى درجة "الهلوسة السمعية" فهو لايستطيع النوم بسبب الصرخات والتأوهات التى يسمعها كل يوم، وقد بذل هذا الشرطى الأوروبى كل مافى وسعه لكى يتجنب سماع تلك الصرخات فكان يعمد إلى سماع الموسيقى، أو يسد أذنيه بالقطن، أو يغلق نوافذ المنزل بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة، ومع ذلك استمرت الصرخات تؤرقه ونقض مضجعه، وعندما ذهب هذا الشرطى إلى الطبيب النفسى فى المستشفى شاهد أحد المرضى الذين كان يستجوبهم من قبل، وكان هذا المريض مصابا بالخبل، وأدى هذا اللقاء بين الشرطى وبين المريض إلى تفاقم حالة كل منهما، فأما الشرطى فقد زادت حالته كآبة

وتوترًا وقلقا، وأما المريض فقد ظن أن الشرطى قد جاء ليقضى عليه مرة أخرى ويسوقه إلى التعذيب فى مراكز الاستجواب فعمد فورًا إلى الانتحار، لكن رجال المستشفى اكتشفوه وأنقذوه.

وهذا أحد رجال جيش التحرير الجزائرى الذى دخل المستشفى مصابا بالعجز الجنسى بعد اكتشاف الاستعمار لدوره فى النضال، فهرب واقتحم البوليس الاستعمارى بيته واعتقل زوجته ولما رفضت الزوجة الإدلاء بأى معلومات عن زوجها ورفاقه اغتصبها جنود الاستعمار بأسلوب فردى ثم أسلوب جماعى، ولما علم المناضل الجزائرى بذلك أصيب بالعجز الجنسى ثم اعترته نوبة من الصمت التام والانصراف عن الاهتمام بشئون جيش التحرير وبدت عليه علامات الكآبة واللامبالاة والصمت.

وهذه حالة فتاة أوروبية كان والدها مسئولا عن أحد مراكز الاستجواب، وكانت تدرس فى العاصمة وتذهب إلى بيت والدها فى الريف فى العطلات فكانت تسمع فى البيت الذى تحول إلى مركز من مراكز الاستجواب صوت الصرخات والتأوهات، وبدأت تشعر بعيون الأهالى تتهمها فى صمت وتعذب ضميرها لأنها نشأت فى هذه القرية ولعبت مع هؤلاء الذين يعذبهم والدها كل يوم، ورويدًا رويدًا اعتراها النفور من والدها الذى بدأت ترى فى وجهه وجه سفاح متوحش عديم القلب وعديم الرحمة والإنسانية، وبدأت الفتاة تخشى والدها، وانهارت العلاقة الأبوية تماما حتى أن الفتاة انقطعت عن زيارة والدها.

وذات يوم أرسلت إليها قيادة الجيش الفرنسى برقية تحمل نبأ مقتل ولدها على أيدى رجال جيش التحرير، وقد مدحت البرقية بطولة والدها واعتبرته شهيدًا وطنيا وحددت له مكافأة سخية، فما كان رد فعل الفتاة إلا أنها رفضت رؤية جثة والدها، كما رفضت تسلم المكافأة ونوط الشرف العسكرى قائلة: إن السفاح لايستحق أن يمنح أنواط الشرف، لقد كان والدى سفاحا وليس بطلا، أما تلك المكافأة فهى ثمن ما أراقه من الدماء، إننى لا أريد شيئا، سوف أعمل ولو كنت رجلا لكنت انضممت على الفور إلى جيش التحرير الجزائرى.

وتلك حالة اثنين من الفتيان الجزائريين عمرهما ١٣، ١٤ سنة يقتلان رفيقهما

الأوروبى، لقد اعترف الصبيان بأنهما قتلا رفيقهما الأوروبى، وهو رفيق اللعب والمرح، وأعيد تمثيل الجريمة فما حدث هو أن أحد الصبيين قد قام بمسك الضحية، بينما طعنها الثانى بسكين، ولم يتراجع المتهمان الصغيران عن اعترافهما وقد جاءت الأقوال فى التحقيقات على النحو التالى:

(١) الصبى الذى عمره ١٣ سنة قال:

"لم نكن غاضبين منه، كنا نذهب فى جميع أيام الخميس معا إلى الصيد بالنقّافة على الرابية التى تعلو القرية، وكان رفيقا طيبا لنا، وكان قد انقطع عن الذهاب إلى المدرسة لأنه كان يريد أن يصبح بنّاء مثل والده، وذات يوم قررنا أن نقتله لأن الأوروبيين يريدون أن يقتلوا جميع العرب، ونحن لانستطيع أن نقتل الكبار ولكننا نستطيع أن نقتله هو، لأنه فى مثل سننا، ولقد أخذنا سكينا من البيت وقتلناه".

- لكن لماذا اخترتم هذا الصبى بالذات دون غيره؟

-لأنه يلعب معنا وماكان لأحد سواه أن يصعد معنا إلى الرابية.

- ولكنه رفيق لكما؟

- ولماذا يريدون هم أيضا أن يقتلونا؟ إن أباه منخرط فى الميليشيا، ويقول إنه يجب ذبحنا.

- ولكن هل قال هو لك شيئا من هذا القبيل؟

- هو ... لا.

- هل تعلم أنه الآن ميت؟

- نعم.

- ما الميت ؟

- هو أن ينتهى الأمر ويذهب الشخص إلى السماء.

- أأنت الذى قتلته؟

- نعم .

- هل تشعر بالندم لأنك قتلت إنسانا؟

- لا ، ماداموا يريدون أن يقتلونا.

- هل يزعجك أنك فى السجن؟

- لا .

(٢) الصبى الذى عمره ١٤ سنة :

سئل هذا الصبى لماذا ارتكب جريمة القتل؟ فلم يجب ، ولكنه سألنا:

- هل رأيتم فى حياتكم أوروبيا فى السجن؟

- لا لم نر فى حياتنا أوروبيا فى السجن.

- ومع ذلك هناك جزائريون يقتلون كل يوم ، أليس هذا صحيحا؟

- نعم ، صحيح.

- إذن لماذا لانجد فى السجون إلا جزائريين؟ هل تستطيع أن تفسر لى هذا الأمر؟

- لا ، ولكن قل لى أنت: لماذا قتلت هذا الصبى الذى كان رفيقا لك؟

- سأشرح لك، هل سمعت بمذبحة "ريفية" التى قتل منها جنود فرنسا أربعين جزائريا دون ذنب؟

- نعم .

- لقد قُتِلَ اثنان من أقربائى فى ذلك اليوم، وقيل يومئذ إن الفرنسيين حلفوا أن يقتلونا جميعا بعضنا إثر بعض، فهل اعتقل فرنسى واحد بسبب مقتل جميع هؤلاء الجزائريين؟

- لا أعلم .

- فاعلم إذن أنه لم يعتقل أحد، وقد أردت أنا أن أصعد إلى الجبل "للنضال المسلح" لكنني صغير، فقررت مع صديقى أنه من الواجب أن نقتل أوروبيا.

- ولماذا ؟

- وما الذى كان يجب أن نفعله فى رأيك ؟

- لا أدرى، ولكنك طفل وهذه الأمور التى تحدث إنما هى من شأن الكبار.

- ولكنهم يقتلون أطفالاً أيضا !

- ولكن هذا لايبرر قتلك لرفيقك.

- قتلته وافعلوا الآن ما تشاءون.

- هل أساء إليك هذا الرفيق إساءة ما ؟

- لم يسئ إلىّ.

- إذن .

- هذا ماحدث.

* * *

أما حالات اضطرابات السلوك التى شوهدت لدى الفتيان الجزائريين ممن تقل أعمارهم عن عشر سنوات فهى حالات منتشرة بين اللاجئين من أبناء المجاهدين، وقد رحلوا إلى تونس والمغرب وأقاموا تحت إشراف مراكز مختلفة مما أتاح دراستهم، فاكتشفنا أن لدى هؤلاء الأطفال حبا قويا لصور الأبوين، ويلاحظ فيهم -عموما- الخوف الشديد من الضجة والتأثر الشديد بالتأنيب والظمأ الشديد إلى الهدوء والعطف والحنان.

كما أن كثيرًا منهم يعانى الأرق والسير أثناء النوم، وإبلال الفراش أحيانا، كما لاحظنا ميولهم السادية أثناء اللعب متجلية فى: ثقب الورق بالدبابيس وتمزيق الأوراق

بعنف، وعض الأقلام وكثرة المشاجرات فيما بينهم.

* * *

أما المرضى الذين تعرضوا للتعذيب الوقائى فيبدو عليهم الحزن العام، دونما أسباب، والخوف دونما مبررات موضوعية، وهم لايبارحون أسرتهم وليس لهم أى اتصال بالناس، وتظهر لديهم -من حين إلى آخر- اضطرابات عنيفة تتسم بالعنف المفاجئ، ويفقد بعض هؤلاء القدرة على تناول الطعام، وسبب هذا هو الخوف من ملامسة أى شئ ملامسة جسمية، مما يصعب معه تغذية المريض ولو بالطرق الاصطناعية.

كما يلاحظ لدى بعض هؤلاء المرضى فقدان الاستقرار الحركى، فهولاء المرضى بالرغم من أنهم منزوون دائما إلا أنهم يصعب عليهم تحمل قضاء بعض الوقت فى مكتب الطبيب، فهم لايستقرون فى مكان، وهؤلاء يظهر لديهم الشعور بالظلم واضحا جليا، ويفقدون الشعور -من ثم- بعدالة أى قضية، كما يشعرون أن القضية التى يدافعون من أجلها ضعيفة.

أما الذين تعرضوا -بعد التعذيب- إلى تناول مصل الحقيقة "البانتوتال" فهم يعانون من صراع لاشعورى نفسى، ويصعب إبراز هذا الصراع عن طريق النقاش والمحادثة، إن استخدام البانتوتال مع المعتقل من شأنه أن يحطم الحاجز السياسى ويسهل عملية إجبار المعتقل على الاعتراف والإدلاء بالمعلومات المطلوبة، وهذا هو الشكل الطبى من أشكال الحرب النفسية المخربة كما يقول فانون.

ومن الملاحظ أن الذين تعرضوا لهذا العقار يعانون من التجمد الكلامى، ومن تكرار جمل بعينها مثل "لم أقل شيئا، صدقونى، لم أتكلم" وغالبا مايصحب هذا التكرار شعور بالخوف، والمريض -كما يقول فانون- لايدرى حقا هل أدلى بمعلومات أم لا، ولكنه يشعر بأنه آثم فى حق القضية التى يدافع عنها وفى حق الأخوة الذين أفضى بأسمائهم وعناوينهم، وما من تطمين يمكن أن يرد الهدوء إلى هذه الضمائر التى خربت تخريبا.

والمرضى من هذا النوع أيضا يتحاشون الانفراد مع شخص من الأشخاص ويستولى عليهم الخوف من الانفراد خشية التعرض للاستجواب فى أى لحظة، كما يلاحظ على

نفس المرضى أعراض الكف التى تظهر جلية واضحة فى حذر المريض من كل سؤال يلقى عليه، ومن كل إجابة يجيب بها، ولذلك فهو يستخدم الجمل القصيرة ويتوقف فى منتصفها لمراجعة نفسه فيصاب بالكف والمنع والبطء النفسى وبتر الجمل.

أما الذين يتعرضون لغسل الدماغ فإنهم تظهر لديهم أعراض الخوف من كل مناقشة مشتركة، وأعراض العجز عن تفسير وضع معين أو الدفاع عن قضية معينة، وغالبا ما يكون الهدف من غسل الدماغ هو تغيير الاتجاهات وتحقيق الترويض الحقيقى، ويحدث ذلك عندما يعترف المعتقل بأنه:

- ليس هناك مايسمى بجبهة التحرير الوطني.
- إن الانتماء إلى جبهة التحرير شر يجب تجنبه.
- إن مستقبل الجزائر هو المستقبل الفرنسى، ولا يمكن إلا أن يكون فرنسيا.
- إن الجزائر بدون فرنسا ترتد إلى العصور الوسطى.

* * *

هكذا يوظف الاستعمار سائر قواه بهدف التخريب النفسى، وقد قلنا إن الاستعمار قد وظف الكثير من العلماء للقيام بهذا الغرض فى مراكز الاستجواب ومراكز الشرطة والمعتقلات، بل إنه قد وضع نظرية علمية نفسية خاصة بسكان أفريقيا مؤداها أن الأفريقى همجى متوحش بدائى عدوانى، وفى إطار هذه النظرية العرقية الاستعمارية يرى البروفيسور "بورو" أن حياة سكان شمال أفريقيا تسيطر عليها المطالب المتصلة بالدماغ الأوسط فكأنه يقول إن هؤلاء السكان محرومون من اللحاء الدماغى، ويقول مع تلميذه "سوتر" عام ١٩٣٩ فى مجلة "الجنوب الطبى الجراحى":

"ليست البدائية نقصا من النضج، وليس توقفا ملحوظا فى نمو الحياة النفسية والعقلية، إنما هى حالة اجتماعية بلغت آخر مراحلها تطورًا، حالة متلائمة تلاؤما منطقيا مع حياة مختلفة عن حياتنا".

ويصل هذان الأستاذان أخيرا إلى الأساس الذى تقوم عليه عقيدتهما فيقولان: "ليست هذه البدائية مجرد أسلوب ناشئ عن تربية خاصة، وإنما هى تقوم على ركائز أعمق من ذلك بكثير، حتى لنعتقد أن أساسها استعداد خاص فى بنية المراكز الدماغية أو على الأقل فى التنظيم الطبقى الحركى لهذه المراكز الدماغية، فمن الواضح أن اندفاعية الجزائرى وكثرة جرائم القتل التى يرتكبها والصفات التى تتصف بها جرائم القتل هذه وميوله الدائمة إلى اقتراف الجريمة وبدائية كل ذلك ليس مصادفة، إنما نحن هنا إزاء سلوك منسجم مع نفسه يمكن تعليله علميا. إن الجزائرى ليس له لحاء دماغى، أو قولوا على نحو أدق إن السيطرة عنده إنما هى للدماغ المتوسط، شأنه فى ذلك شأن الحيوانات الفقرية الدنيا، فالوظائف اللحائية إن وجدت عنده فهى ضعيفة جدًّا، لاعجب إذن فى إحجام المستوطن الأوروبى عن أن يكل المسئولية إلى السكان الأصليين، وليس ذلك من قبيل التعصب العرقى، وإنما هو إدراك علمى لكون السكان الأصليين محدودى الإمكانات بيولوجيا".

ويؤكد الدكتور "كاروتر" فى كتابه "سيكلوجية الأفريقى" نفس الرأى فيقول:

"إن الأفريقى قلما يستعمل الفصين الجبهيين من دماغه، ويمكن أن ترد جميع خصائص الأمراض العقلية فى أفريقيا إلى كسل الفص الجبهى من الدماغ".

أما الأفريقى السوى -فى نظر كاروتر" إنما هو الأوروبى استؤصل جزء من دماغه، وهكذا أسهمت حتى النظريات العلمية الاستعمارية فى تعميق جذور الاستعمار وفى الاحتقار الاستعمارى للشعوب المستعمرة، وقد دلت هذه النظريات على النظرة التى ينظر بها الغرب إلى الإنسان غير الغربى، وانكشف وجه أوروبا والغرب كله.

لقد سقطت أقنعة الغرب، ولم يبق على وجهه سوى الملامح الاستعمارية القبيحة التى طالما رفعت شعار "الإنسانية" وشعار "الرقى" وهاهو الغرب يخرب ويدمر الإنسانية فى كل مكان لأنه لايريد من الإنسانية سوى تلك النفوس المخربة القانعة بقيود عبوديتها للغرب.

* * *

لقد نالت معظم الدول استقلالها وتحررت من الاستعمار العسكرى، ولكن يظل أغلب هذه الدول متخلفا وتابعا للاستعمار الجديد، الاستعمار الاقتصادى، فلا تحرر نهائى لهذه الشعوب إلا بالخلاص من التبعية وإعادة بناء مجمعاتها ذاتيا، وعلى الشعوب المتخلفة فى العالم الثالث أن تعمل لكى يبزغ فجر التحرر، فجر الإنسانية الجديدة بعد أن أفلس الغرب وسقطت عنه كل أقنعته ولم يعد يصلح لقيادة البشر إلى الإنسانية الحرة السعيدة.

* * *

* حطموا هذا الصنم

والآن أيها الرفاق قد حان الوقت لأن تحطموا هذا الصنم، هذا النموذج المفلس، هذه الأوروبا، قد حان الوقت لكى تبدأ شعوب العالم الثالث مسيرتها الذاتية بلا قدوة ولانموذج، لأن عليها أن تكشف قواها وإمكاناتها، وأن تخلق عالمها وأن تضيف الإبداع الذاتى لها إلى رصيد الإنسانية، لقد حان الوقت أيها الرفاق لكى نفعل ذلك، فماذا سوف نضيف إلى الإنسانية؟ هل نضيف مسخًا جديدًا يشبه أوروبا؟ وإذا كان علينا أن نعطى لأوروبا شيئا لقاء ما أخذناه منها بحلوه ومره ماذا سوف نعطيها؟ هل سوف نرد إليها بضاعتها؟

لقد خنقت أوروبا الإنسانية باسم الإنسانية، ومن أجل مغامرتها الروحية -الفكرية- سيطرت أوروبا على أربعة أخماس البشرية لكى تصنع مجدها الذاتى وتاريخها القومى، فهل يظل أربعة أخماس البشرية على نفس الدرب من التبعية لأوروبا؟

لقد حان الوقت لكى يتحرر "عبيد العصور الحديثة" من عبادة هذا الصنم، عبادة هذه الأوروبا، ولقد حان الوقت لنصنع مجتمعاتنا بأفكارنا نحن، بإبداعنا نحن، لقد حان الوقت لكى نرد إلى الإنسانية ما أهدرته أوروبا على مر تاريخ مغامرتها الروحية التى قتلت الإنسان وهى تبحث عنه.

. لقد حاولت أوروبا أن تسيطر على العالم كله، وأن تكرر نموذجها فى كل مكان، وكانت البداية أمريكا، ذلك المسخ الأوروبى، المسخ الأكثر تشوها من أوروبا ذاتها، فهل نصنع أوروبا ثالثة أكثر تشوها؟

* * *

لكى نصنع عالمنا الجديد، عالم الإنسانية الجديدة، يجب أن نتخلى عن عقائدنا القديمة، عن كل أحلامنا الساذجة عن تعلقنا بأوروبا، يجب أن نحدد هدفنا ورسالتنا ويجب أن نعلم أن طريقنا يختلف عن الطريق الذى مضت فيه أوروبا وهى تتحدث عن الإنسان، بينما هى تقتل الإنسان فى كل مكان.

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها، فماذا كانت نتيجة المغامرة الروحية التى قادتها أوروبا؟ كانت النتيجة الملموسة فى كل مكان -عدا أوروبا- هى خنق الإنسانية كلها، وها هى أوروبا ذاتها تسقط وتنهار بين تحلل الذرة وتحلل الروح.

أيها الرفاق لقد حان الوقت لكى نفهم أن هناك ماهو خير لنا من أن نتبع أوروبا، أوروبا التى لم تتوقف لحظة عن خداع البشر باسم الإنسانية والرقى الإنسانى، بينما تعلم الإنسانية كلها كم قاست البشرية من الآلام وكم دفعت البشرية من الآلام ثمنا لكل نصر من انتصاراتها الذاتية؟

أيها الرفاق لقد حان الوقت لأن نعرف أن الطريق أمامنا قد أصبح واضحا، وأن بإمكاننا أن نجرب كافة السبل بشرط عدم تقليد هذه الأوروبا، وبشرط أن نقتل الرغبة فى تقليدها هذا التقليد الأعمى الذى يجعل منا مسخا مشوها.

لقد أمسكت أوروبا بالعالم كله فى حماس وعنف، ولقد رفضت كل مذلة وكل تواضع، لكنها أيضا رفضت كل رقة أو حنان، وفى سبيل ذلك حطمت كل حدود المكان والفكر، لقد بنت هذه الأوروبا مجدها على حساب البشرية كلها، ولكى تظل قوتها فى مكانها دونما ضعف استبدت بالعالم كله فى عنف وجمدت تقدم البشرية كلها، لقد أرادت أوروبا أن تكون فى المقدمة وأن يلهث العالم كله خلفها وهو يحاول اللحاق بها، ولكن هذه الأوروبا سقطت أخيرًا من فرط سرعتها المجنونة المحمومة، وأصبح واضحا أن تقدم العالم كله يقتضى الانفصال عن هذه الأوروبا، ويقتضى تحرر الشعوب من استعمار أوروبا.

أيها الرفاق علينا أن نلتمس طريقنا المستقل إلى الفجر الجديد، فجر العالم الثالث المتحرر، فجر الشعوب الأفريقية، صحيح أن المستقبل لايصنع بغير هدى، بغير مثال أو نموذج، ولكننا نعلم اليوم أن كافة الإخفاقات التى منى بها العالم من جراء تقليد أوروبا تكفى لأن ننحى هذه الأوروبا عن قيادة العالم وعن احتلال مكانة النموذج المثالى.

علينا أيها الرفاق أن نستفيد من تجربة أوروبا وأن نتجاوز هذه التجربة، ومعنى ذلك أننا لانبدأ من الصفر أو أننا نبدأ برصيد كاف من الخبرة والتجربة، وكل مانحتاج إليه هو تنمية هذه الخبرة بتوسعة عالم التجربة، إذن علينا أن نعمل على تحطيم أغلال أوروبا، تلك الأغلال التى قيدتنا طويلاً وجمدت تقدمنا وتقدم البشرية كلها.

إن تحررنا يعنى أننا سوف نتقدم وليس تقدمنا مصلحة لنا فحسب بل هو مصلحة للبشرية كلها، وهو أيضا مصلحة لأوروبا -ذاتها- التى شارفت السقوط فى الهاوية.

فمن أجلنا ومن أجل الإنسانية كلها ومن أجل أوروبا علينا أن نكتشف روحنا، وأن نبنى مجتمعنا وأن نجدد أفكارنا حتى تكتمل رؤانا للعالم الجديد الذى نريده، إذ إن هذا العالم الجديد هو أمل البشرية كلها بعد تاريخ طويل من الألم والمعاناة والعبودية.

* * *

أيها الرفاق نحن لن نبدأ من الفراغ، لقد علمنا أن الأسلوب الأوروبى أو التكنيك الأوروبى لايؤدى فى النهاية إلا إلى إنكار الإنسان، إلا إلى جرائم متوالية فى حق الإنسان، فهذا الأسلوب أو هذا التكنيك لايصلح لبناء عالم إنسانى صحيح، إن المصير الإنسانى ومشاريع الإنسان والتعاون بين البشر كلها مشاكل تحتاج إلى فكر جديد وابتكارات جديدة، لقد بحث الغرب عن ذاته عبر مغامراته الفكرية الخاصة وبفضل فكره سوغ لنفسه قتل الإنسان واستعباد أربعة أخماس البشرية.

إذن لايجب للعالم الجديد الذى ينبغى أن يكون، العالم الذى نريده، لاينبغى له أن ينى على الفكر الأوروبى، بل يجب أن يقوم عالمنا الجديد على فكرنا نحن، على تجاربنا التى تعبر عن وجودنا وخبراتنا وأهدافنا نحن، لقد نشأ الفكر الأوروبى وقام على مبادئ إنسانية، وكان المحور الرئيسى لهذا الفكر -فى البداية- هو الإنسان، لكنه -بكل تأكيد- ليس الإنسان الحى الصانع للتاريخ، الصانع لكل شىء، كان الإنسان فى هذا الفكر يختفى خلف الألفاظ الميتة ومرادفاتها ومزاوجاتها، وبهذا خلا ذلك الفكر من الوقائع الإنسانية الحية وامتلأ بتجريد الوقائع حتى غاب الإنسان نهائيا واختفى كليا، وطغت -مقابل

ذلك- نرجسية الذات الأوروبى تلك النرجسية التى سوغت لأوروبا استعباد أربعة أخماس البشرية.

صحيح أن الفكر الأوروبى قد تعرض لأكثر المشاكل البشرية والإنسانية وانطوى على العناصر اللازمة لحل تلك المشاكل، ولكن هذا الفكر ظل فكرًا مجردًا، وجاءت ممارسة أوروبا مخالفة تماما لكل الحلول التى طرحها هذا الفكر لحل مشاكل البشرية، وكان تركيز أوروبا على ذاتها ومجدها وتاريخها وتقدمها دون سائر الإنسانية، وهكذا فشلت أوروبا فى أن تحقق رسالتها الإنسانية المزعومة.

وإزاء فشل هذه الأوروبا هذا الفشل الذى دفعنا نحن ثمنه، علينا أن نطرح مشكلة الإنسان من جديد، الإنسان الذى يسهم -فى كل مكان- فى بناء وتقدم العالم، الإنسان المتواصل مع أخيه الإنسان، المرتبط معه فى كل شئ، وعلينا أن نطرح مشكلة الحضارة العالمية من جديد، لاباعتبارها مشكلة تخص جنسًا أو نوعًا من البشر بعينه، بل باعتبارها مشكلة إنسانية عامة، لنا نصيبنا فيها وعلينا أن نقوم بدورنا ورسالتنا من خلالها، وبهذا وحده يتواصل الدماغ البشرى للكتلة البشرية ويؤدى مهامه بتواصل وترابط لا انقطاع فيه، بهذا لايسود جزء من البشرية على سائر البشرية.

* * *

لقد انتهت لعبة أوروبا الفكرية، وبانتهاء هذه اللعبة تكون هذه الأوروبا قد صنعت ما كان عليها أن تصنعه، وحان الوقت لأن ينتهى دورها التاريخى، وليس لها -بذلك- أن تستمر فى إحداث هذا الضجيج المتصلف المغرور، إننا وقد علمنا ذلك لن نحسدها ولن نستمر فى الخوف منها، إن العالم الثالث يعرف اليوم أن عليه أن يقف أمام أوروبا معلنًا أنه سوف يتحمل عبء إيجاد الحلول لكافة المشاكل البشرية التى لم تستطع أوروبا أن تحلها .

هذه إذن هى رسالتنا ومهمتنا، وعلينا أن نتوقف عن التفكير الذى يفرض علينا أنواعا من الأساليب بعينها لكى نحقق هذه الرسالة، أى أن علينا أن لانفكر فى الوفرة الإنتاجية،

أو الجهد العنيف، أو السرعة العظيمة التى تمكننا من اللحاق بأوروبا، وليس معنى ذلك أيضا "العودة إلى الطبيعة"، كل ماهنالك هو أن علينا الاحتراس من هذا النمط من التفكير، لأنه هو نفسه الذى قاد أوروبا إلى الإفلاس والهاوية، وجعلنا نحن ندفع ثمن الفشل الأوروبى .

نحن لانريد اللحاق بغيرنا، نحن لانريد سوى الوصول إلى ذاتنا، إلى إنسانيتنا التى أهدرتها أوروبا، وهذا الهدف يدفعها إلى العمل معًا، ولايدفع بعضنا إلى محاولة الانفراد بخلق وفرض النمط الفكرى الذى يتحتم اتباعه.

ولذلك يؤكد "فانون" فى نهاية كتابه هذا:

"أن على العالم الثالث أن يستأنف تاريخا للإنسان يحسب حساب النظرات التى جاءت بها أوروبا، وكانت فى بعض الأحيان رائعة، ولكنه يحسب أيضا حساب الجرائم التى قامت بها أوروبا فى الوقت نفسه، وأبشع هذه الجرائم هى أنها قد قامت بتشتيت وظائف الإنسان تشتيتا مرضيا، وفتتت وحدته، كما أوجدت فى المجتمع تحطما وتكسرًا وتوترات دامية تغذيها طبقات، كما أوجدت على مستوى الإنسانية أحقادًا عرقية واستعبادًا واستغلالاً وقتلاً هو ذلك النبذ لأربعة أخماس البشرية".

ولذلك فنحن نؤيد وجهة نظر "فانون" الذى يعتقد أن الإنسانية -الآن- تنتظر منا شيئا آخر غير التقليد الكاريكاتورى الفاجر لأوروبا ونقول معه بتعبيره الصريح:

"إذا أردنا أن نحيل أفريقيا إلى أوروبا جديدة، وأن نحيل أمريكا إلى أوروبا جديدة، كان علينا أن نعهد بمصائر بلادنا إلى أوروبيين لأنهم سوف يحسنون التصرف فيها أكثر من أعظمنا موهبة".

* * *

يجب ألا يتوقف التاريخ عند فشل هذه الأوروبا ، لأن توقفه عند هذه المرحلة من التاريخ البشرى طويلاً لايعنى سوى تأخرنا عن البعث الذى يبدأ به ميلاد العالم الجديد الذى ينقل الإنسانية درجة أخرى إلى الأمام، والإنسانية -عموما- تنتظر منا الآن أن نضيف إليها شيئا جيدًا وجديدًا يختلف عما قدمته لها أوروبا.

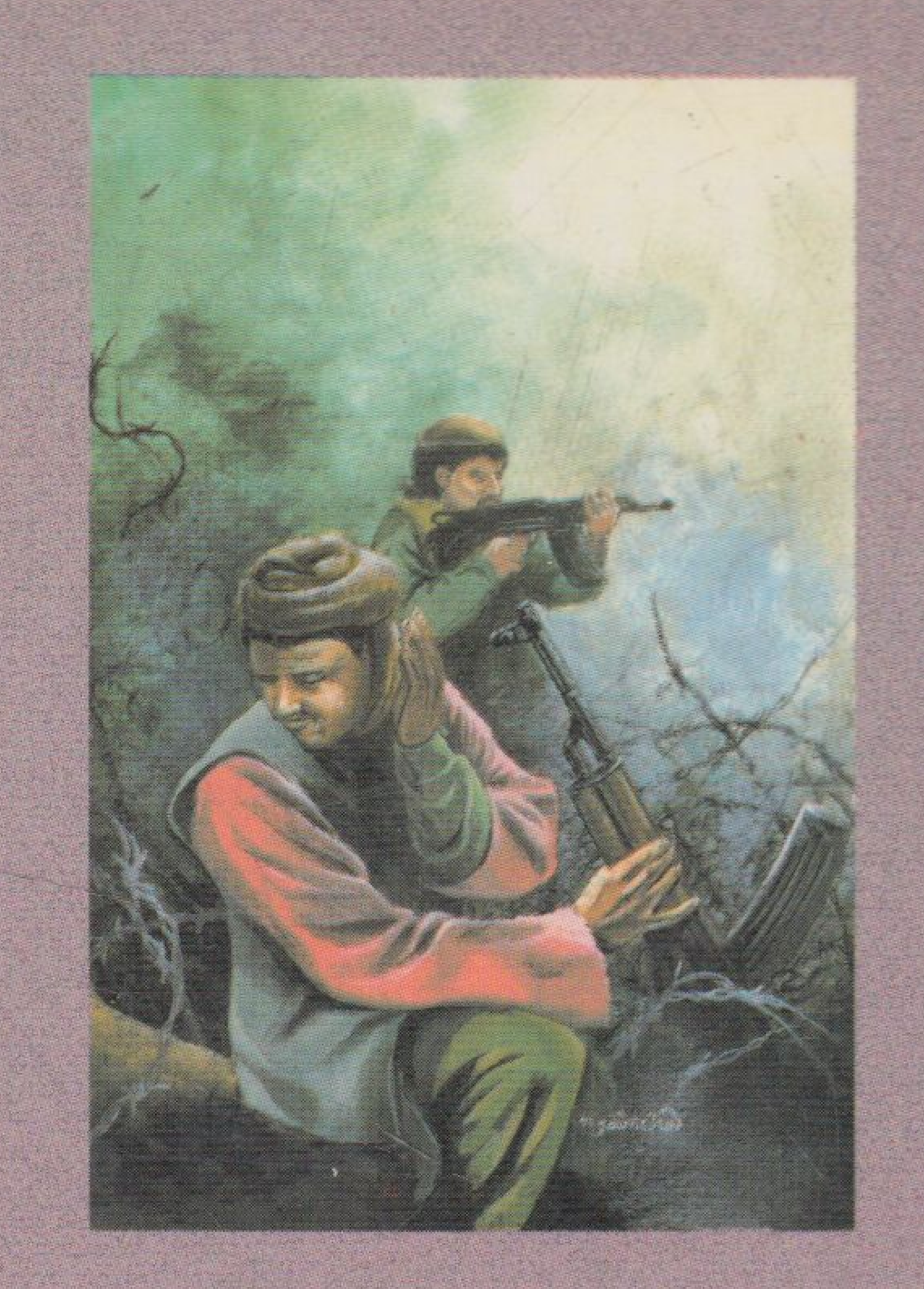
فإذا كان علينا أن نستجيب لآمال الإنسانية، وآمال شعوبنا، علينا أن نبدع ونبتكر ونالاستعمارل ذلك كله علينا أن نجترئ على عقائدنا القديمة التى عمقها الاستعمار فى عقولنا ونفوسنا لتحول بين قوانا وملكاتنا وبين الإبداع فى مختلف الميادين.

إن التخلص من أغلال الاستعمار وحده لايكفى للتقدم، بل لايقل خطورة عنه تخلصنا من أغلال الماضى، وخاصة مايتعلق بالوهم والخرافة فى هذا الماضى، إن الإبداع الجديد المنتظر لايتأسس إلا على عقل متحرر يتسلح بالعلم والخبرة والإنسانية.

إن علينا أن نصنع التاريخ القادم، تاريخ المستقبل، ولابد لهذا المستقبل ألا يشبه حاضرنا أو ماضينا، كما لابد له ألا يتشابه مع أوروبا، ولا أن يكون حتى صورة مثالية منها، لأن أوروبا ذاتها بدأت تشمئز من ذاتها، فمن أجل المستقبل، ومن أجل الإنسانية، ومن أجل شعوبنا، يجب علينا أن نبتكر فكرًا جديدًا، وأن نخلق إنسانا جديدًا، وتلك هى الوسيلة الوحيدة المفيدة فى تحطيم هذا الصنم الذى يسمى أوروبا، وهى الطريقة الوحيدة الناجحة لبناء المستقبل المشرق، مستقبل الإنسانية كلها.

* * *

المحتويات



تقديم

عاطف عمارة

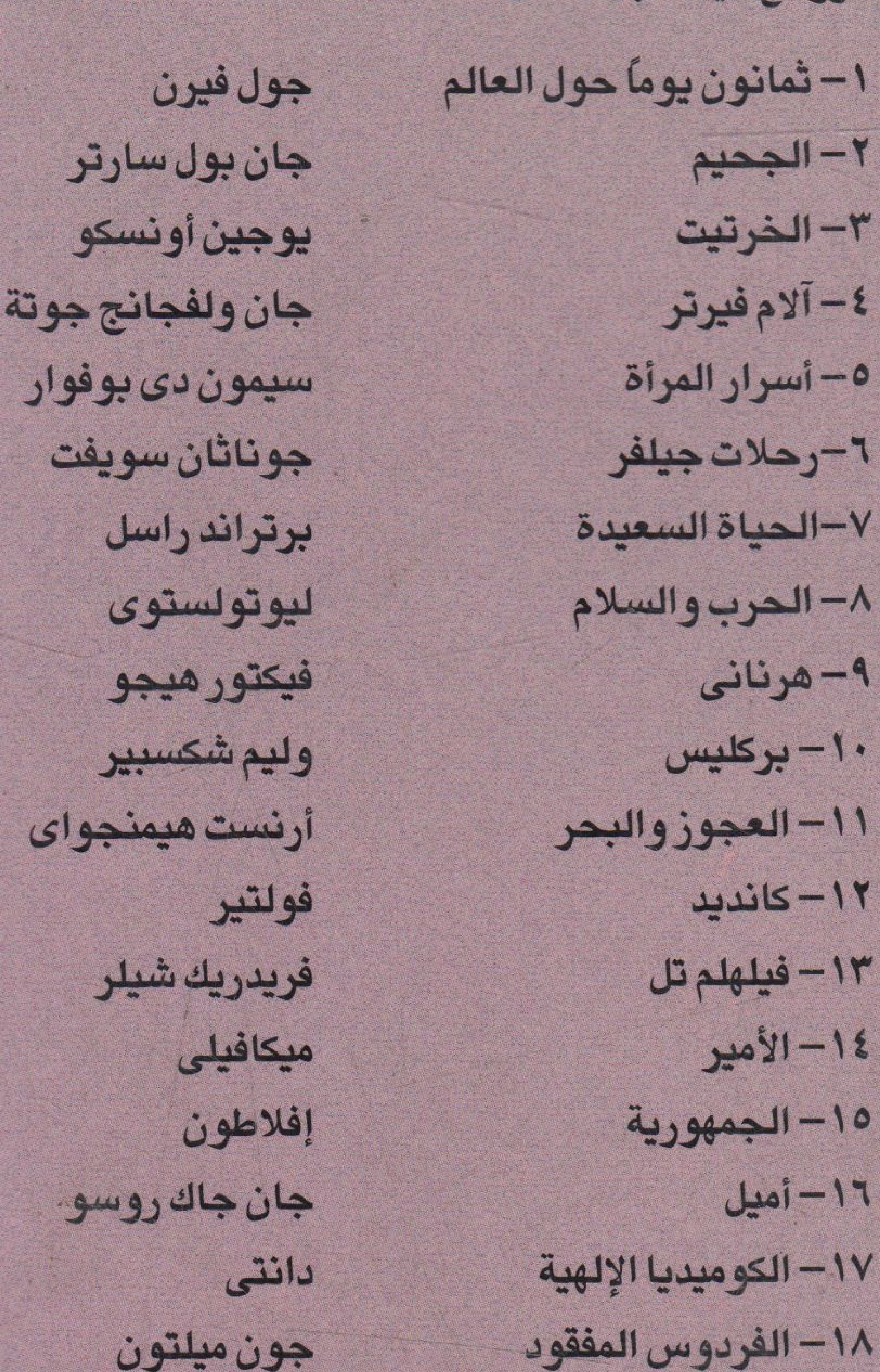
المعذبون فى الأرض

الناشر

الناشر العربى

أعظم الكتب

سلسلة هدفها تقديم خلاصة روائع الأدب العالمى والفكر الإنسانى الراقى فى ثوب أنيق مبسط للشباب ، يمدهم برافد هام من روافد الثقافة العالمية ، إيماناً منا بضرورة الإنفتاح على العالم ، والتواصل مع ثقافاته لكى نغذى ثقافتنا بهذا الرافد الجديد الذى يقدم لنا الروائع والنفائس العالمية فى أبسط أسلوب يجعل استيعاب هذه الروائع هينا سهل المنال.



الكتاب	المؤلف
١– ثمانون يوماً حول العالم	جول فيرن
٢– الجحيم	جان بول سارتر
٣– الخرتيت	يوجين أونسكو
٤– آلام فيرتر	جان ولفجانج جوتة
٥– أسرار المرأة	سيمون دى بوفوار
٦–رحلات جيلفر	جوناثان سويفت
٧–الحياة السعيدة	برتراند راسل
٨– الحرب والسلام	ليوتولستوى
٩– هرنانى	فيكتور هيجو
١٠– بركليس	وليم شكسبير
١١– العجوز والبحر	أرنست هيمنجواى
١٢– كانديد	فولتير
١٣– فيلهلم تل	فريدريك شيلر
١٤– الأمير	ميكافيلى
١٥– الجمهورية	إفلاطون
١٦– أميل	جان جاك روسو
١٧– الكوميديا الإلهية	دانتى
١٨– الفردوس المفقود	جون ميلتون
١٩– اليوتوبيا	توماس مور
٢٠– حكايات كنتربرى	تشوسر
٢١– المعذبون فى الأرض	فرانزفانون
٢٢– أندروماك	يوربيد
٢٣– البحث عن الزمن الضائع	مارسيل بروست
٢٤– الإنسان والسوبرمان	برناردشو
٢٥– فاوست	جوتة